مراتب العقل والدين

الشيخ

عبد الغني العمري

حفظه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه، وكل عباد الله الصالحين.

وبعد، إن ما يميّز عصرنا عن سالفه من العصور، هو احتكاك الأمم المختلفة والشعوب المتباينة فيما بينها، احتكاكاً لم يسبق له مثيل، بسبب وسائل التواصل والإعلام التي قلّصت المسافات و سهّلت الاطلاع على المعلومات الكثيرة في أقل الأوقات. مما جعل كل أمة ملزمة أن تبني لنفسها صرحاً من المقومات على أساس متين، في جميع المجالات والميادين، إذا كانت لا تريد أن تُداس بالأقدام ولا أن يفوتها الركب المسرع في خطاه مع كل دقائق الزمان.

وأمتنا الإسلامية، وهي إحدى هذه الأمم، أولى من غيرها أن تقوم بذلك، لأن لها سنداً إلهياً لا يبارى وهدياً نبوياً لا يجارى، من دون أخواتها في الإنسانية. لها الوحي الذي بيّن لها ما تفعل وكيف تفعل. من أين تبدأ وإلى أين تنتهي. فما عليها حياله إلا أن تنهل من معينه العذب. ولها فيه غُنية عن سواه من بنات أفكار البشر إن هي تفطنت.

غير أن أمتنا على العموم، أصيبت مؤقتاً بالوهن الذي ترجع أسبابه من جهة، إلى عدم التزامها بدينها التزاماً يفتح لها أبواب كنوزها؛ ومن جهة أخرى إلى التشكيك الذي تتعرض له في هذا الدين عينه. إما من قِبَل أعدائها الأجانب عنها، وإما ممن تأثروا بهؤلاء من أبنائها.

ومما يلاحظ من خلال ما يروجه هؤلاء وأولئك من أغاليط وأباطيل، أنهم يتخذون العقل والعقلانية وسيلة لإقناع الأمة، سالكين في ذلك سبلاً من الفكر قد تشتبه على من لا يحسن النظر فيها.

فصار البعض يدعو إلى تجاوز للدين، ذلك أنه عنده من نتاج البشر في حقبة معينة من الزمان لظروف معينة، كان العقل البشري لا يزال فيها في مرحلة الطفولة التاريخية، وبما أنه الآن في زعمهم قد قطع أشواطاً كبيرة، صار لزاماً عليه، تماشياً مع مبلغ رشده، أن يلقي بالدين في ذاكرة التاريخ متمسكاً بالعقل الذي يمكّنه من استكشاف غياهب المستقبل الذي لا تلوح له نهاية في أفقهم.

ولنفصح عنها بصراحة: صاروا يستحيون من التدين وإظهار ذلك أمام هذا العقل الوقح الذي لا يرحم من لا يحسن الدفاع عن نفسه.

فنتج عند البعض تدين خجول، يقر للعقل بسيادته المطلقة أو شبه المطلقة، ويستسمحه في أن يمُنّ عليه بأويقات يمارس فيها شعائر صارت عنده غالباً تراثاً محترماً مدرجاً ضمن المقدسات التي يجب الحفاظ عليها، تلك المقدسات التي صارت دائرتها تتسع يوماً بعد يوم، حتى صار منها ما هو أممي أو قومي أو وطني. من هذه المقدسات ما هو فرائض، سُمّيت باصطلاحهم حقوقاً، كحقوق الجماعات وحقوق الإنسان الفرد (إنسانهم) بأركانها المتعلقة بالمرأة والطفل وغيرهما (ما لم يكونوا مسلمين)، ومنها نوافل كالأيام المنظمة للاحتفال والاحتفاء بهذه البدعة أو تلك، وهذا اليوم أو ذاك، كيوم الأم ويوم المسرح وغيرهما من

الأيام؛ ومستحبات كالمؤتمرات العالمية أو القارية التي تسن السنن وتبين بيان تفصيل ما سبق أن شرعت.

إنه شرع « العولمة » الذي نزل به العقل المتقدم حسب قولهم ... هذه العولمة التي لن تكون اقتصادية فقط، على ما يبدو!

فمن آمن فهو عاقل، ومن كفر فهو متخلف جاهل.

وبما أن هذا العقل عندهم عليم خبير، بدأ ينظر في الدين (التراث) نظرة مُراجع ومصحح، حتى يجد له حلة جديدة مفصلة على القياس العصري حسب أحدث صيحات الموضة الفكرية.

من ذلك: أن إلزام العقل بالدين ظلم له وتقييد، وأن العفة آثار لعقد نفسية علينا التخلص منها، وأن ستر المرأة جسدها ظلم لها واستنقاص من إنسانيتها، والرجوع إلى حكم الله في الأشياء ظلمانية يجب التحرر منها. وليتهم أفصحوا وقالوا: يا أيها الناس اكفروا بما كنتم عليه، وآمنوا بما جئناكم به، ربما لتنبه البعض منا إلى خطورة الوضع، ولكنهم حاوروا وداوروا. وما هذه إلا البداية !... كل هذا باسم « السيد العقل »، والمسلمون غافلون عن أسباب قوتهم، يحاولون مجابهة الأعاصير بحولهم وقوتهم. والخصم المتعقلن يفاخرهم بمنجزاته التكنولوجية وأسلحته النووية واكتشافاته الجينية، وكأنها معجزات شرعه.

والمسلم حائر، أيجابه كل ذلك بالدين؟! بالوحي!

أحَياءً من « السيد العقل » أم خوفاً؟... هذا التخاذل!

ووالله لو رضي المرء بالحمق مع تمسك بالدين عن إيمان ويقين، لكان أعز له وأكرم! ولو وثق بربه وتمسك بحبله، لكان له أنجى وأسلم.

وتوضيحاً للأمر واجتلاء له، ارتأينا تأليف هذا الكتاب، راجين من الله أن يسددنا فيه على الحق، وأن يؤيدنا فيه بعونه وقوته، راغبين في رفع اللبس الذي يحيط بالعقل، جاعلين الكلام فيه على ثلاثة أبواب:

أولها: العقل المجرد.

ثانيها: العقل المعضد.

ثالثها: مثبطات العقل لدى الأمة.

سائلين الله تعالى القبول، والنفع للكاتب والقارئ، إنه أهل الفضل والكرم.

والله المستعان.

جرادة، في ليلة الخميس الفاتح من المحرم لسنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف للهجرة الشريفة - ٢٠٠٠ م.



في أثناء تناولنا للعقل بجميع مراتبه، سيلاحظ القارئ أننا لا نحذو في ذلك حذو من تعرض لهذا الموضوع بالاستناد إلى ما تعارف عليه معاصرونا، برجوعهم غالباً إلى علماء الغرب الذين لا ينطلقون من منطلقنا نفسه، متأثرين في ذلك ببيئة غير بيئتنا وملة غير ملتنا.

من ذلك: العقل عند غيرنا لا يتصل بالدين، بل ولا يجب أن يتصل به، خلافاً لما هو الأمر عليه في الحقيقة .

ومن ذلك: النفس. فهي عند علماء النفس، تعني مجال دراسة البواعث ومختلف السلوكات المترتبة عليها، والآثار الناجمة عنها، بينما هي عندنا تعني العقل من حيث هو عقل، لكن باعتبار خاص سنبينه من خلال هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ثم إننا في خلال هذا العرض، سنتجاوز بعض المصطلحات الوضعية التي نراها بعيدة في دلالتها عن المعنى الذي نرمي إليه، مستعيضين في ذلك بما يؤدي المعنى من الكلمات.

وبما أننا نتوخى معرفة الحقائق المرتبطة بالعقل، فإننا لن نُغرق في التعابير المتشعبة ما استطعنا، محاولين مباشرة المعاني بلغة هي أقرب ما تكون إلى البساطة والوضوح، ونعني بهما: النفاذ.

لذلك نرجو من القارئ، أن لا يقيس كل ما نكتبه على ما سبق أن اطلع عليه عند غيرنا، إلا إذا توصل إلى إدراك المعاني التي نقصدها على الوجه الذي نريده. كما نشير إلى أن

استعراضنا لمراتب العقل، سيكون وسطاً بين الاختصار والتطويل، إذ لو أردنا استقصاء أغلب التفاصيل المندرجة ضمن دائرة العقل، لاحتاج ذلك إلى أجزاء عديدة، ونحن نريد فقط من خلال هذا العمل أن ننبه القارئ إلى الموضوع، وأن نثير فيه الرغبة في استكشاف آفاق العقل بنفسه، لأنه لا يفيد في هذا الاستكشاف غير ذلك.

والله الموفق.

البَابُ الأَوَّلُ

العقل المجَرد

تعريف العقل

١ - العـقل لـغـةً واصـطـلاحاً

أ - العقل لغة

يرجع معنى «عقل» في الغالب إلى: فهم، أمسك، حبس، شد. واسم الفاعل منه عاقل، ومصدره عقْل.

ب - العقل اصطلاحاً

هو القوة المدركة من الإنسان، به يدرك الأشياء ويميزها على تفاوت بين الأشخاص في هذه القوة: فمنهم عاقل ومنهم أعقل. والعقل على التحقيق هو: باطن الإنسان وغيبه الذي نشهد أثره ولا نشهده، وهو الذي يُكسب الإنسان صفته الإنسانية من بين باقي المخلوقات على الأرض، وهو المخاطَب والمكلف من الإنسان، والمتحكّم والموجّه لسائر أعضاء هذا الإنسان.

٢ - مآخذ العقل

أولاً: الحواس

إننا لنجد من أوضح معاني العقل: الحبس والتقييد، إذ إن العقل عند إدراكه الكون، إنما يقتبس عينات مقيدة يضبطها عبر حواسه، ولا يمكنه إدراك كل الموجودات على الإجمال.

فالعقل عبر الحواس، وهي أول مآخذه، إنما يدرك بالعين مثلاً، ما يدخل تحت إحاطتها، ويغيب عنه ما يخرج عن تلك الإحاطة. ولذلك فهو لا يدرك عظائم المخلوقات كالسماء أو البحر على العموم، كما تغيب عنه في مقابل ذلك دقائق المخلوقات وصغارها كالخلايا أو الذرات. فهو إذن، لا يتمكن من إدراك كل المبصرات بالعين، وإنما يدرك جزءاً معيناً من تلك المبصرات؛ كما يدرك بواسطة الأذن مجالاً معيناً من الأصوات ويغيب عنه منها ما يخرج عن هذا الإدراك، مما هو أعلى من ذلك المجال أو أدنى.

وقس على هذا باقي الحواس، من شم وذوق ولمس.

بل إن مدارك العقل نفسها، تختلف باختلاف الأشخاص، كأن تجد شخصاً يستطيع إبصار ما لا يبصره غيره، أو أن يسمع ما لا يتمكن من سماعه غيره. بل قد يتعدى اختلاف هذه المدارك حدود الإنسان إلى الحيوان، الذي يشترك معه في هذا المأخذ الأول للعقل: فتجد حيواناً ما، يدرك بحاسة من حواسه ما لا يدركه الإنسان بتلك الحاسة نفسها.

وعلى هذا، فإن المعنى اللغوي للعقل الذي يفيد التقييد، يصدُق على عقل الإنسان بصفته قوة إدراك من حيث هذا المأخذ.

ثانياً: الفكر

التفكر عملية يتميز بها الإنس والجن عن بقية المخلوقات. وهي من أحب الأعمال إلى العقول والعقلاء، إذ تعطيهم لذة عظيمة أثناء تصرفهم في المعلومات، تصرف السيد في عبيده، والمَلك في مملكته.

قد تسبّب هذه اللذة الناتجة عن التفكر إدماناً لصاحبها، وقد تجعله شديد التعصب لها، بل وقد تسترقّه وتصيّره عبداً لها، لا يستطيع الخلاص منها.

وكما أن العقل مقيد من حيث المأخذ الأول الذي هو الحواس، فإنه مقيد كذلك من حيث الفكر، كما سنبين ذلك إن شاء الله، عند بسط هذه العملية بالتفصيل. ونكتفي هنا بضرب أمثلة على التقيّد:

– إن العقل من حيث الفكر قد يقع في الغلط، فتجد أن ما توصل به عقل ما إلى نتيجة ما، يتوصل به عقل آخر إلى نتيجة أخرى مغايرة، فيكون أحد العقلين بهذا غالطاً، إن لم يكونا معا، ويكون الغلط بالتالي، نقصاً في احتمالات الصواب، مما يعطي للعقل محدودية كما تقدم.

– إن عملية التفكر لا تفيد كثيراً في ما وراء الحس (المعاني التي وراء الحس)، فتجد العقل هنا لا يكاد يضبط ما يتفكر فيه، فتكون بذلك أغلب نتائجه مظنونة.

– إن لعملية التفكر ضوابط وشروطاً تحكمها ، قد لا يحسن الالتزام بها كل عقل، أو قد لا تتوافر لديه، فيكون الفكر مختلاً بقدر عدم إحكام تلك الضوابط والشروط، أو عدم توافرها. فيغيب عن العقل من النتائج ما يتناسب وهذا الاختلال.

ثالثاً: المأخذ الثالث

سنعرض له في الباب الثاني من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

٣ – أسماء العقل

أ – التسميات المختلفة للعقل

يتبين من خلال ما سبق، أن العقل الذي تناولناه، غير مؤهل لأن يُعتمد عليه بالكلية في جميع ما يريد الإنسان إدراكه على الحقيقة؛ لذلك وجب الكلام على آفاق العقل المختلفة وبيان خصوصية كل أفق منها.

وفي البداية يلزمنا رفع اللبس الذي يحيط بالعقل من حيث تسميات تطلق عليه كمرادفات أو تنسب إليه كصفات، وهي: النفس والقلب والروح.

فنقول مستعينين بالله:

إن هذه الأسماء في الحقيقة تدل على مسمى واحد، غير أن هذا المسمى له اعتبارات مختلفة تجعل الناظر إليه باعتبار ما، يسميه باسم لا يسميه به إذا نظر إليه باعتبار آخر. وإننا نجد أقربها إلى الدلالة على حقيقته وخاصيته الكبرى: القلب. ذلك أن تسمية القلب من التقلب، ومن ضمن التقلب، التقلب في الأسماء المختلفة. فهو تارة قلب وتارة نفس وأخرى عقل أو روح.

ب - الاعتبارات الحاكمة على العقل

إن حقيقة الإنسان المستوية على التمام بين طرفي النقيض من وجود وعدم، ونور وظلمة، تعطيه تسمية القلب لأنه في كمال قابليته للأمرين معاً. وميل القلب عن درجة الاعتدال تلك، إلى أحد الجانبين دون الآخر، يخرجه عن قلبيته ويجعله:

إن غلبت عليه الظلمة وأحكام العدم، يصير نفساً بهذا الاعتبار.

وإن غلب عليه النور وأحكام الوجود، يصير روحاً بهذا الاعتبار.

وهو عقل على كل حال. بمعنى إضافة الإدراك إليه بصرف النظر عن كونه مخطئاً أم مصيباً في هذا الإدراك.

وقد نجد هذه التسميات التي ذكرناها موصوفة بصفات قد تخرجها عن الحد الأصلي لها، حسب الاعتبارات المذكورة آنفاً: كأن نسمع عن القلب المقفل، فمعناه أنه مقفل عن النور، فهو هنا إذن نفس؛ أو كأن نسمع عن النفس المطمئنة، فهي هنا روح.

إن علمت هذا، فإنك ستجد لهذه الحقيقة القلبية مرتبتين تفصيليتين بين النفس والقلب، وبين القلب والروح، وذلك حسب نزول هذه الحقيقة في تينك المنزلتين، تستلزمان (أي المرتبتان) تسميتين أخريين هما: الفؤاد والصدر.

وإن عرفت ماذا نقصد بالتسميات، فقل كما شئت وعبر بها تراه مناسباً.

الفصل الثاني

العقل المجـــرد

١ - صورة مبسطة

لقد وجد الإنسان نفسه بعد أن لم يكن (الإنسان هنا بالمعنى العام الافتراضي و ليس آدم)، وجد نفسه مدرِكاً لنفسه، وسط مخلوقات قد تشبهه من أوجه وتمتاز عنه من أوجه أخرى، بين سماء وأرض، يتعاقب عليه ليل ونهار، تتجاذبه أحوال متباينة، ملائمة لأغراضه تارة، وغير ملائمة أخرى؛ ووجد من نفسه انجذاباً إلى أشياء حسب هذه الأغراض، ونفوراً من أشياء أخرى، كما وجد من نفسه قوة تسعفه على التصرف في نفسه أو في غيره من الموجودات، تبعاً لما يعطيه إدراكه. غير أن ذلك لم يكن له دائماً على التمام: فقد لاحظ أن الأشياء قد تنصاع له حيناً، وتستعصي عليه حيناً آخر: وذلك كتوفر مصادر الأكل له مثلاً في زمان دون زمان أو في مكان دون مكان، أو مناسبة نوع من المأكولات له في حال دون حال؛ فاحتار الإنسان في نفسه: أهو سيد الوجود، بحيث يكون من سواه عبيداً مُسخَّرين له يتصرف فيهم كما يشاء ؟ ... فلا يجب أن يستعصي عليه شيء، ولا أن يخالف إرادته شيء ! أم هو مسخر مثل غيره، لا يملك من أمره شيئاً؟ فلمن هو مسخّر، ولِمَ هو مسخّر؟ ...

ولماذا يجد من نفسه بعض قدرة وبعض تحكم في مقابل ذلك؟

فصار الإنسان يتوق إلى الوصول إلى حل هذا اللغز الكبير، واستعمل في ذلك كل قواه الحسية منها والعقلية، فشرع يرتب معلوماته ويصنفها، ثم يركبها تركيباً خاصاً ينتج له

معلومات جديدة، وصار إدراكه يتطور شيئاً فشيئاً ويتوسع بمرور الزمن، فظن أنه يقترب من الحل، حل اللغز الذي يُحيّره.

وإلى جانب تعطشه إلى العلم بحقيقة الأمر، أو قل قبله، كان الإنسان يتحرك حسياً ومعنوياً في هذا الوجود بدافع حافزين اثنين، هما:

- دفع الضرر.
- وجلب المنفعة.

وكلاهما يندرج تحت معنى واحد هو: المحافظة على بقاء النفس.

فمن قبيل دفع الضرر: احتماؤه من الحر والقر، واتقاؤه من الحيوانات التي تكون خطراً على حياته، إلى غير ذلك من المضار.

ومن قبيل جلب المنفعة: توفير المأكل والمشرب للإبقاء على حياته وقوته، والبحث عن سبل تنمية مداركه، إلى غير ذلك من المنافع.

لكن من حقق النظر، يجد أن جلب المنفعة يعود في الأصل إلى دفع الضرر، فتوفير المأكل والمشرب مثلاً، إنما هو في الأصل لدفع ضرر الجوع والعطش في المرتبة الأولى، ثم دفع ضرر الموت في المرتبة الثانية، وهكذا في كل أمر على التفصيل. غير أن إدراك هذا الأمر على سبيل التحقيق، ليس في مقدرة العقل في هذا الطور.

كما يلاحظ أن النتائج لم تكن دائماً موافقة لإرادة الإنسان في هذا المجال: فهو من حيث يريد دفع الضرر، قد يقع فيه؛ ومن حيث يريد جلب النفع، قد يجر على نفسه ضرراً لم يكن متوقعاً لديه.

وبمرور الزمن، صارت هذه الصورة المبسطة لمظاهر حياة الإنسان، تزداد تعقيداً وتشعباً حتى لتكاد تخفى أصولها عن جل العقول. ومع تطور الإنسان، وتوصله إلى تحقيق

بعض أغراضه، صارت الكماليات تتولد عن الضروريات، ثم تصير الكماليات أشبه بالضروريات. فينطلق الإنسان سعياً وراء تحقيق أغراض وكماليات لا تكاد تنحصر، إلى أن بلغ الحال إلى ما هو عليه اليوم.

لكن هل خرج الإنسان من حيرته؟ وهل وجد الأجوبة الشافية عن أسئلته؟ ذلك ما يشهد على نفيه أغلب ما توصل إليه الإنسان من خلال مسيرته العقلية؛ باستثناء قلة ممن ستتعرف عليهم في الباب الثاني من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

من خلال وظائف العقل الإنساني، المتعلقة بمختلف مظاهر إسهاماته في تطور الحياة البشرية، نستخلص خاصيات لهذا العقل، منها:

أ – قدرته على خزن المعلومات.

ب – قدرته على تذكر المعلومات المخزونة عند الحاجة إليها.

ج – تجريد المدركات الحسية من صورها، والعبور إلى معانيها: وذلك كالعبور من صورة المصباح مثلاً إلى معنى الإنارة، ومن صورة السلاح إلى معنى القتل.

د – خلع صورة محسوسة على المعاني المجردة (التصوير): وذلك كمنح معنى الإنارة صورة المصباح، أو معنى القتل صورة السلاح، وهي (أي هذه الخاصية) عكس سابقتها، لذلك هما متكاملتان بالنظر إلى دورهما في العمليات العقلية.

هـ – التخيل: وهو تركيب مدركات حسية لها أصل في الواقع على هيئة لا توجد عليها في الواقع، وذلك كما يفعل مؤلفو القصص الخيالية مثلاً، أو كأن تتخيل إنساناً له رأس ذئب وأذنا حمار وذنب أسد مثلاً.

هذه الخاصيات التي ذكرناها ستعمل على إثراء عملية عقلية رئيسة في هذا الطور، هي عملية التفكر.

٢ - الفكــر

الفكر هو استعمال معلومات ثابتة الصحة عند العقل للتوصل إلى معلومات جديدة. وأولى المعلومات ثابتة الصحة لدى العقل، والتي كانت منطلقاً لعملية التفكر هي البديهيات التي هي شطر المسلمات، و التي تقبّل العقل صحتها من دون برهنة عليها، بل هي لا تقبل البرهنة، وذلك كإدراك الإنسان لوجود نفسه؛ بخلاف من أراد الاستدلال على وجوده كما سيأتي. وكعدم اتصاف شيء بنقيضين في الوقت نفسه، الذي هو من المسلمات، وذلك كأن تقول: إن الرجل طويل قصير، أو إن الثوب جديد بال، هذا مبلغ الفكر.

ثم إن العقل يضم معلومتين تشتملان معاً على عامل مشترك (الحد الأوسط)، فينتج له ذلك علماً جديداً لم يكن لديه، وهذه المعلومة الجديدة يضمها إلى أخرى فتنتج له نتيجة أخر، وهكذا ... فالمعلومتان الأوليان اللتان تُضمان معاً هما المقدّمتان، والمعلومة الجديدة هي النتيجة.

يتضح من هذا، أن عملية التفكر عملية تسلسلية توالدية، تنبني على أصل ثابت لدى العقل غير متولد عنه، إذ لو تولدت عنه لكانت البديهيات مبرهن عنها.

ضوابط الفكر

إن الفكر الذي يعتمد في مساره طرق البرهنة المعروفة، لا بد أن يتقيد بضوابط وشروط كي يضمن عدم الزلل، ومن ذلك:

- لا بد من علم الأصول والفروع، والكليات والجزئيات، وعلم النسب المختلفة بين أمرين أو أكثر: كالتقابل والتضاد والتناسب والتوافق والتطابق، وغير ذلك ...
- تمييز العلوم المهارية العملية من العلوم النظرية الصرف.

- قابلية المراجعة والتدارك والتصحيح.
- قابلية المقارنة مع فكر آخر.

وبما أن عملية التفكر عملية مترابطة، فإن بعض أجزائها متوقف على البعض الآخر: فلو افترضنا أن الخطأ تسرب إلى جزء منها، فإن كل الأجزاء المترتبة عليه باطلة، تجب إعادة النظر فيها بعد تصحيح الخطإ في الجزء السابق لها.

ثم إن عملية التفكر تتبع خطاً معيناً مستنداً في توجهه إلى مبدإ يحكمه ويوجّهه في كل مرة. هذا الخط هو النسق الفكري، والمبدأ الموجه هو المنطق. إذن فللفكر عدة أنساق حسب احتمالات استعمال المعلومات التي لدى العقل، وهو محكوم بعدة أنواع من المنطق نُرجعها إلى اثنين أساسين:

أ - المنطق المجرد: وهو الذي يتحرى الصحة والصدق دونما أي اعتبار آخر. وهذا المنطق غالباً ما تكون نتائجه صحيحة.

ب - منطق الهوى: وهو المنطق الذي له اعتبارات أخرى تحددها الأهداف العامة لعملية التفكر، قد يقدمها العقل على الصحة، وبذلك تكون نتائجه فاسدة بقدر ابتعادها عن المنطق المجرد.

نماذج من الفكر المحرف

الفكر الجدلي: ينحرف صاحب هذا الفكر عند تقديمه اعتبار إفحام الخصم على اعتبار الحق.

الفكر السياسي: قد ينحرف السياسي عن الحق إن هو قدم اعتبار اكتساب المؤيدين والأنصار على اعتبار الحق، أو قدم اعتبار غلبة الخصم على اعتبار الحق، وهكذا ...

الفكر التجاري: ينحرف التاجر أو رجل المال عن التفكير السويّ إن اعتبر الربح أكثر مما يعتبر الحق، أو اعتبر عدم الخسارة أكثر من اعتبار الحق.

يتبين من كل هذا أن لكل هوى منطقاً، والأهواء متعددة تعدد الأغراض، فينتج عن ذلك عدة أنواع من الفكر تلتقي بعضها بعضاً أحياناً، وتتضارب أخرى.

٣ - آفـات الفكر

من خلال ما سبق، يتضح أن الفكر ليس معصوماً، وأنه معرض لآفات منها:

أ - احتمال الخطإ بسبب تشعب عملية التفكر وكثرة الضوابط لها وطول النسق المحدد لمعالمها.

ب - اتباع الأهواء، وهو ما يحرف الفكر عن وضعه الأصلي.

ج - جهل الضوابط التي تحكم العملية أو عدم إتقانها.

د - التقليد: وهو يؤدي إلى عدم التثبت من مكونات الأنساق، بسبب ثقة بالغير أو تأثير هذا الغير، مما يزيد من احتمالات الخطإ.

هـ - التعصب للفكر، وهو ناتج عن الثقة المطلقة بالفكر، واعتقاد أنه بإمكانه التوصل إلى جميع المعلومات المرادة للعقل. وهو بهذا الاعتبار قيد للعقل إلى جانب قيد الحواس الذي ذكرناه سابقاً، عوض أن يكون عوناً له على الترقي في مدارج الإدراك الممكنة.

و - التشعب: وهو احتمال تزويج كل معلومة لكل معلومة أخرى، مما يجعل المتفكر أحياناً يمر بجانب الحل الصحيح، أو ما يجعله يتوصل إلى الحل، لكن عن طول في التفكر، كان من الممكن تلافيه.

٤ - بيان نماذج من الفكر في قضية الوجود والرد عليها بإيجاز

أ - المنهج الشكي الديكارتي

شاع في الآفاق ذكر ما يسمى المنهج الشكي الديكارتي، واعتمد أحياناً مذهباً فكرياً حجة. وشاعت مقولة ديكارت الشهيرة: أنا أفكر، إذن أنا موجود. الواضح أن ديكارت أراد هنا أن يستدل على وجوده، فنقول:

أولاً: إن وجود المرء عند نفسه، لا يستدل عليه، لأنه بديهية مسلمة، والبرهنة على البديهية نكث لغزل. فإن قيل إن البرهنة على البديهية أبلغ في صحة الفكر؛ قلنا: بل هي نقض للفكر من أساسه، إذ لولا البديهيات المسلمة ما ظهر للفكر وجود.

ثانيـــاً: استدل ديكارت على وجوده بعملية فكره، وهي عمل عقلي، والعقل صفة للمستدل (اسم فاعل) والفكر فعل له، والبرهنة في هذا الاتجاه باطلة. فهي كالاستدلال على الأصل بالفرع أو الجوهر بالعرض، وهذا إخلال بالمراتب العقلية التي تقتضي الاستدلال على الفكر بالعقل وعلى العقل بذات المستدِل.

ثالثـــاً: إن المقولة المذكورة، لا تنطلق من الشك كما يُظن: فكلمة " أفكر " مستندة إلى " أنا "، و " أنا " يقين لا شك. فهو إذن انطلق من وجود إلى وجود، وهذا من قبيل تحصيل الحاصل ولغو الفكر.

رابعـــاً: لا يمكن بتاتاً الانطلاق من الشك المطلق في عملية التفكر المتعلق بالوجود: ذلك أن الشك المحض، استواء تام بين رتبتي الوجود والعدم، فاحتيج إلى مرجح حتى تقع الحركة العقلية، فإن وقع الترجيح للعدم عقلاً، لم يصح أن يكون أساساً للفكر، إذ العدم لا يبنى عليه، وإن وقع الترجيح للوجود، فالعملية الفكرية، يكون انطلاقها وقتئذ من يقين لا من شك.

فيبقى أن الشك المقبول عقلاً، ليس هو: هل هو موجود أم لا، وإنما: هل هو كذا أم كذا (من الصفات). وهذا خلاف هذا المذهب. فتبين بعد كل هذا بطلان هذا المذهب، وبطلان مقولته. وإننا لنعجب كيف لم يتصد لدحضه وبيان عواره أحد، مع كثرة المفكرين في هذا العصر.

ب - الفكر الإلحادي المعطِّل

يقوم هذا المذهب الفكري على أساس " لا إله" مع إثبات وجود الكون بما فيه القائل بهذا المذهب. فنقول:

أولاً: لا بد لهذا الكون من أحد أمرين، بما أنه مشهود الوجود:

- **الأمر الأول**: أن يكون وجوده عن نفسه.
- **الأمر الثاني**: أن يكون وجوده عن غيره.

بسط الأمر الأول: وجود الكون ليس قديماً بسبب سبقه بالعدم، وهذا أمر ظاهر، والكون في حالة العدم لا يكون عنه وجود، فكيف إذاً يمكن للكون أن يوجد نفسه؟ فتبين بطلان الاحتمال الأول.

بسط الأمر الثاني: وهو أن يكون وجود الكون عن غيره، وله احتمالان:

إما أن يكون هذا الغير مشابهاً للكون أو أن لا يكون. فإن كان مشابهاً للكون، احتاج إلى موجد له، والموجد إلى موجد، إلى ما لا نهاية، وهو أمر غير ممكن عقلاً؛ أو لا بد له من الانتهاء إلى موجد أصلي. وإن كان هذا الموجد غير مشابه للكون من حيث الوجود، لا بد أن يكون وجوده ذاتياً (لاستحالة التسلسل)، وغير مسبوق بعدم، وهو معنى القدم (لوجوب هذا الوجود). أما الوجود التابع لهذا الوجود، وهو وجود الكون، والذي يأتي في المرتبة

العقلية الثانية، فهو الوجود الواجب بغيره، وهو أيضاً الوجود الممكن، وذلك بالنظر إلى مرتبته الأصلية التي هي العدم، ومرتبته الحالية التي هي الوجود؛ ووجود الممكن هو عين ترجيحه، والمرجح هو واجب الوجود بنفسه. فتبين من هذا، أن للكون موجداً قديماً، صفة الوجود له ذاتية.

فإن قيل: إن الكون وجد عن الطبيعة، وهو قول الطبيعيين، نقول: إما أن تكون الطبيعة موجودة بغيرها، فتلحق بمرتبة الممكنات، وهذا ما لا يؤهلها لأن توجد الكون: فكما قلنا سابقاً إن الممكن أصله عدم، والعدم لا يكون عنه وجود؛ وإما أن تكون قديمة، صفة الوجود لها ذاتية، فيكون الخطأ قد وقع من حيث إطلاق الاسم لا غير.

وإن قيل: إن الكون وجد عن صدفة، كما يقول كثير ممن يعد نفسه عاقلاً هذا الزمان، فنقول:

أولاً: إن الصدفة هي عدم القصد في الإيجاد، وهو عدم، والعدم لا يكون عنه وجود كما قلنا.

ثانياً: إن تأملنا الكون وجدناه على ترتيب معين، ونظام متسق بيّن، فإن كان وجوده صدفة (افتراضاً) فقد تبع هذه الصدفة الأصلية عدد غير متناه من الصدف، والصدفة المتكررة أو المتعددة، تبطل منطق الصدفة، إذ التكرار والتعدد يفيد القصد. فلو قلنا مثلاً إن الإنسان الأول نتج عن صدفة، فالذي بعده (ولده) يجب أن ينتج عن صدفة أخرى، وولد الولد عن صدفة ثالثة، لتبين للعقل السليم أن هذا لا يستقيم، وأن وجود الإنسان مقصود لموجده.

ج – الفكر الدهري أو التاريخي بالتسمية المعاصرة: وهو قريب من سابقه

يدعي هذا المذهب أن الكون موجود، لكن وجوده بغير غاية، بل هو (أي الكون) الذي يحدد مساره في هذا الوجود. والوجود عند هؤلاء دنيوي لا آخرة فيه. يتبين أن هذا المذهب كسابقه، إلا أن الأول وقعت له الشبهة في القصد للوجود وهو البدء، بينما هذا الثاني وقعت له في الغاية من الوجود وهي النهاية. فنقول:

أولاً: إن عدم ترتيب حكمة عن إيجاد الكون، الذي هو العبثية، لا يمكن أن يصدر عنه وجود لعدميته كما سبق مراراً.

ثانيـــاً: وكما أن الصدفة لا يمكن أن تكون بداية للنظام، لعدم صحة القول بتسلسل الصدفة، فكذلك العبثية لا يمكن أن تُسبق بالنظام لوجوب تسلسل العبثيات قبلها، وهو ما لا يقبل عقلاً.

د – المذهب المادي، أو ما يُسمى زوراً بالعلمي

أصحاب هذا المذهب لا يعترفون إلا بالمحسوس، فما أثبتته حواسهم وعقولهم بالتبعية لها، أقروا به، وما لم يدركوه بهذه الطريقة أنكروه.

فنقول:

أولاً: إذا كان العقل غير مشهود للحواس، وهم يحكمون على غير المشهود بالعدم، فكيف يستندون في مذهبهم إلى عدم؟ فإن قيل إن العقل هو الدماغ والدماغ مشهود، قلنا: فعملية التفكر غير مشهودة. فإن قيل: هي كهرباء سارية في الدماغ، قلنا: هل قستم تلك الكهرباء بحيث تستطيعون قراءة أفكار إنسان ما، بمجرد قياس أقدار كهرباء دماغه؟ فإن

قالوا: لا، قلنا لهم: فكيف تثقون بنتيجة غير مجربة عندكم؟ ولزمهم إذ ذاك: إما الرجوع عن مذهبهم، وإما القول بعدم وجود عقولهم.

ثانياً: إن المادة نفسها منها ما هو مدرك (اسم مفعول) لنا، وما هو غير مدرك، فما هو مدرك لنا بالحواس لا خلاف عليه مع تباين في الإدراك بين الأشخاص: فقد يدرك بالحواس شخص ما، ما لا يدركه غيره كما سبق، فيكون ما هو مشهود للأول غيباً عند الثاني؛ غير أن التفاوت في مجال الحواس ضئيل، لذلك نجاوزه إلى غيره: وهو أن من الماديات ما لم يكن مدركاً في الأزمنة الماضية (كالجسيمات الصغيرة مثلاً)، وأصبح مدركاً في زماننا بواسطة الآلات والأجهزة المتطورة. فإن نظرنا إلى تسلسل الأزمان، وجدنا أن ما كان غيباً عند قوم أصبح شهادة عند آخرين. والتطور مستمر، والأجهزة متسارعة في التطور. فدل هذا على أن من المادة ما هو غيب دائماً. فإن كان الأمر كذلك، وجب حسب مذهب هؤلاء إنكاره، فإن أنكروه وثبت وجوده شهادة مستقبلاً، لزم أنهم أنكروا موجوداً مشهوداً، بصرف النظر عن الزمان. فتبين فساد مذهبهم.

ثالثاً: نضرب مثلاً على الوجود غير المادي فنقول: اللفظة، إن كانت مكتوبة فمادتها الرسم وهو مداد على ورق، وإن كانت منطوقة، فمادتها الصوت وهو ذبذبات في الهواء؛ لكن مدلولها، أتراه مادياً ؟! ولا خلاف على ثبوت المدلول.

وخذ على ذلك مثلاً: كلمة "معنى" وجرب.

فثبت بعد هذا كله، أن ما يسمى بالفكر المادي أو العلمي التجريبي، إنما هو فرع من العلم وليس هو كل العلم، حتى يُظَن أن كل ما خرج عنه يُعَد خرافة وهذياناً كما يُزعم.

٥ - خــــلاصة

- نهاية الفكر السليم في الإلهيات هي: العلم بوجود الإله (لا العلم به)، مع نفي صفات المحدثات عنه. وهو ما يسمى السلب. خلافاً لمن اعتقد أن السلب هنا تعطيل. بل هو إثبات تنزيه لكن لا على التفصيل في هذه المرحلة من مراحل إدراك العقل، والتي سنتعرف عليها في ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

فإن زاد الفكر على هذا في الإلهيات، فإنما سيقع في سقطات فكرية تهوي به إلى درك العقل غير السليم.

- ويبقى للفكر دوره في العلوم الكونية (التي تتعلق بالمخلوقات) كالطب والفيزياء والفلك أو العلوم العقلية كالرياضيات والمنطق. هذه العلوم التي يتقدم فيها الإنسان بحسب جهوده الفكرية المتجمعة عبر العصور، والتي لا ينكر دور الفكر فيها إلا جاهل. كما يبقى للفكر دوره الأساسي، ألا وهو الدور المعاشي وتدبير حياة الإنسان بحسب مستجدات الظروف والوقائع.

البَابُ الثَّانِي

العقل المعضَّد

الفصل الأول

الإيمان والكفر

١ - الفطرة

عندما ثبت لدى العقل السليم وجود موجد له، علم بمنطقه الاستدلالي أنه مرتبط بموجده ارتباطاً لا انفكاك له عنه، هذا الارتباط هو المسمى مألوهية. وثبت له في مقابل مألوهيته ألوهية موجده، فتميزت لديه المرتبتان: الألوهية والمألوهية. ثم بطريق القياس والاستنتاج، وبما أن وجوده مستفاد من الإله، توصل إلى أن ما يتعلق بوجوده من صفات وأفعال (الأعراض)، هو أيضاً مستفاد من الإله بالأحروية. فظهر له أنه لن يعلم نفسه حقيقة ولا إلهه من نفسه، بل بإعلام من إلهه. فانكسر ونزل إلى المرتبة السفلى راضياً منتظراً ما يفيضه عليه إلهه من مواهب.

وهذه المنزلة هي منزلة الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وهي منزلة المُوَفَّقين من أهل الفترات الذين كانوا قبل البعثة المحمدية ولم يدركوا رسولاً. أما اليوم، فلم يعد لهذا الصنف من الناس وجود بسبب استغراق الرسالة المحمدية للزمان إلى قيام الساعة. وهذه المنزلة هي أيضاً التي يولد عليها الإنسان لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه »[1].

---

١ - أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ - الإيمان أو الكفر

سمع العقل أن رجلاً يدّعي أن الإله أرسله لباقي بني جنسه:﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الأعراف: [١٥٨]، وأنه يخبرهم عن هذا الإله، عن صفاته وعن أفعاله، ويبلغهم أوامره ونواهيه، ويعلمهم كيف يتقربون من إلههم حتى ينالوا رضاه. فرجع العقل إلى نفسه يمحّص ويتحرى، فتبين له أن هذا الأمر جائز في عرفه، لكن لا بد له من علامة يميز بها بين الرسول الحق وبين من يدعي هذه المهمة زوراً.

فانبرى الرسول يتحدى الناس بأمور لا يستطيعون الإتيان بها، وهي المعجزات، التي هي قولية وفعلية:

القولية: ما يتعلق بالإخبار عن الله بما لا يعلمه إلا الله عن نفسه. أو بالإخبار عن الوقائع التي ما زالت في رحم الغيب، حتى إذا وقعت جاءت كما أخبر الرسول.

والفعلية: ما وقع من الرسول من تصرف في الكون، كشق البحر، وإبراء الأكمه، وتكثير الطعام القليل، وتفجير الماء من بين الأصابع، إلى غير ذلك ...

هنا، وجد العقل نفسه، بعد استنفاد كل سبل التحري والتثبت أمام سبيلين:

الأول: أن يصدق الرسول فيما جاء به.

والثاني: أن يصد عنه ويتولى.

ولا سبيل له من نفسه إلى سلوك السبيل الأقوم إلا بتوفيق من الله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ يونس:[١٠٠]. فإن أذن الله له في الإيمان وجد نفسه منقاداً للرسول وكان ممن قال الله فيهم :﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ البقرة:[٢٨٥]، وانفتح له مع الإيمان أفق جديد لم يكن مدركاً له من قبل. أفق يجاوز الحدود التي كانت تحيط به وتقيده :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ الحديد:[٩]. والظلمة تقييد والنور انفساح.

وأما إن لم يوفق، فسينكر ما جاء به الرسول، إما عموماً كمن يكفر بجميع الرسل، وإما خصوصاً كمن يؤمن ببعض ويكفر ببعض: أي يؤمن برسول سابق، ويكفر بالرسول الذي أدركه زمانه. وفي الحالتين سيمكث في ضيقه كما وصف الله ذلك بقوله تعالى:﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام: [١٢٥]. وعلى التحقيق، فإن الإيمان والكفر وجهان متقابلان للقلب (أو قل وجه وقفا): فمن آمن بالله، كفر بسواه من الآلهة المزعومة؛ ومن كفر بالله آمن بسواه. وذلك كما قال الله تعالى:﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة:[٢٥٦]، وقال أيضاً:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ العنكبوت:[٥٢].

والإيمان المقصود هنا في هذه المرحلة، إنما هو إيمان مجمل. هو أقرب إلى مدلوله اللغوي، أي مطلق التصديق. وهو نور يقذفه الله بفضله في قلب من يشاء من عباده. وهو قد يوجد لدى عقول ليس لها تمرس بالفكر والنظر، بل قد يوهب لعقول ساذجة بسيطة فطرية. فهو إذن ليس نتاجاً فكرياً، ولو كان كذلك، لكان حكراً على الأذكياء والفطناء من بني الإنسان.

وهذا النور بالنسبة إلى العقل، كالنور المحسوس بالنسبة إلى العين، يكون وسيلة لإدراك ما لم يكن يدرك من المعلومات الوجودية التي كانت عنده قبل هذا، من قبيل العدم. وهذا الإيمان يسير بالعقل في مجال جديد، قد يصحح على ضوئه سابق مدركاته إن لم يغيرها جملة.

أما الكفر: فهو انطماس هذا النور وانقطاع أسبابه انطلاقاً من معناه اللغوي الذي هو الستر والحجب، حتى أن الفلاح والليل يسميان كافرين.

وبما أن الإيمان نور، فإن الكفر ظلمة تغشى العقل، فلا يدرك بمقتضاها معلومات وجودية هي عند المؤمن من ضرب البديهيات أحياناً لوضوحها. فانظر ضيق العقل الكافر وحرمانه! فتجد المؤمن يدرك بنور إيمانه ما يتعدى حدود فكره ونظره، وتجد الكافر لا يستطيع أن يتجاوزهما. هذا إن سلما له! وذلك كما في قول الله تعالى:﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ الروم:[٧].

٣ - أسباب الكفر

إن كان الإيمان يُنال بفضل من الله ورحمة، فإن الكفر ترجع أسبابه إلى الإنسان نفسه. ومن تلك الأسباب:

أ - إيثار الحياة الدنيا، لقول الله تعالى:﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ النازعات:[٣٧ – ٣٩].

ب - اتخاذ الشيطان ولياً من دون الله، لقول الله تعالى:﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ الكهف:[٥٠].

ج - عدم المبالاة، لقول الله تعالى:﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الأنبياء:[٢].

د - عدم العلم (أي إدراك حقائق الأشياء)، لقول الله تعالى:﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء:[٢٤].

هـ – عدم صفاء الإدراك، الذي يؤدي إلى انبهام الأمور. فيظن المرء أمراً ما، أمراً آخر، وذلك كقوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ يونس:[٧٦]، لجهلهم بحقيقة السحر، المخالفة لحقيقة الوحي.

و – الكبر، لقول الله تعالى:﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ هود:[٢٧]. وكما قال أيضاً:﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ الأعراف:[٧٦].

ز– الغفلة، لقول الله تعالى:﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف:[١٧٩]. هذا رغم أن حواسهم في ظاهرها سليمة. إلا أنها وبما أنها لم تؤد مهمتها الأساسية، وهي أن تكون وسيلة لاعتبار صاحبها فيما يستعملها فيه قد أصبح حكمها حكم عدمها. فكانت العين عمياء حكماً، والأذن صماء بهذا الحكم أيضاً، وهكذا...

ح – إرادة الدنيا، لقول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾ الإسراء:[١٨]. ولقوله أيضاً:﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴾ إبراهيم:[٣].

ط – الديانة بغير دين الحق، لقول الله تعالى:﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ التوبة:[٢٩]، ولقوله أيضاً:﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ

فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران:[٨٥]، ولقوله تعالى أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ آل عمران:[١٩].

ي – الشرك، لقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ الأنعام:[١٤].

٤ – رفعٌ للَبس

سمعتْ بعضُ العقول قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ الأنعام:[١٢٥]، وأمثاله، فقالت: بما أن الهداية والضلالة بإرادة من الله، فكيف يثاب العبد في حالة الهداية ويعاقب في حالة الضلال، وهو لا يد له فيهما معاً؟ وحكى الله تعالى عن قوم قولهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ الأنعام:[١٤٨-١٤٩]، وانظر كيف جعل الله حل هذه المسألة بالعلم، إذ لو كان لهؤلاء القائلين علم بالأمر ما قالوا ما قالوا. ولكن لما غلب عليهم الظن، وهو علم غير ثابت الصحة، قامت حجة الله عليهم بجهلهم. ولو كان لهم علم بالأمر لقالوا كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ ﴾ النساء:[٤٠]، ولأدركوا معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ يونس:[٤٤]. ذلك أن الله تعالى ما أخرج إلى الوجود إلا ما أراد، وما أراد إلا ما علم. وقد علم الله في المؤمنين صفة الإيمان، فأوجدهم على هذه الصفة؛ كما علم في الكافرين صفة الكفر، فأخرجهم على

صفتهم تلك. فما أُتي الإنسان إلا من نفسه. وقد أشار إلى هذا المعنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه عز وجل: «... فمن وجد خيراً فليحمد الله (لأنه هو الذي تفضل بإخراجه إلى الوجود)، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه (لأنه على تلك الصفة في علم الله) »[٢].

فقول العقول القاصرة إن الله سبحانه وتعالى، بما أنه نسب إلى نفسه الهداية والضلالة يكون ظالماً، باطل من هذا الوجه.

ومن وجه آخر: إن كل الوجود، وما ظهر من موجود إنما هو ملك لله تعالى. ومن تصرف في ملكه، فما ظلم. بل الظالم من تصرف في ملك غيره واعتدى عليه. وهذا ما لا يصح في حق الله تعالى. وإن كنا نرى أن الوجه الأول أقوى في الرد على هذه الشبهة.

وعلى كل حال، فإن علم هذه المسألة ليس في مقدرة العقل المجرد، أو العقل المعضد في هذه المرحلة، وإنما هو من علوم الكشف التي سنتطرق إليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

٥ - مرتبة الإنسان الكافر

لما كان هذا الكون لم يوجد عبثاً ولا من غير قصد، كان الوقوف على دلالته والحقيقة المؤسسة لوجوده مطلب الإنسان العاقل ومطمح المتأمل الآمل في بلوغ منزل الطمأنينة التي تعز على أكثر العقلاء. فكان الوجود بهذا المعنى كتاباً إلهياً بيّناً لمن فتح الله بصره وسمعه وقلبه. وإلى هذا، الإشارة بقول الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق:[١-٥]. وإنه لأمر عجيب أن يغيب هذا المعنى عن أغلب الناس، حتى صاروا يستدلون بهذه الآيات على تعلم القراءة

---

[٢] - أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه.

والكتابة، ويجعلونها أساساً للدعوة إلى التعليم بالمعنى الجزئي، في المؤسسات الخاصة بذلك؛ ناسين أو متناسين أن الأمر الإلهي الوارد في الآيات السابقة، موجه بالدرجة الأولى إلى رسول أمي وأمة أمية. وغافلين عن كون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، المعصوم، قد امتثل الأمر الإلهي وقرأ.

فأي قراءة هي هذه، غير التي أشرنا إليها؟ وتدبر قول الله تعالى، بعد الأمر بالقراءة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ العلق [١]، لتعرف أن الكتاب المخلوق (الكون) هو المقصود بالقراءة. وما ذكرناه لا ينتقص من تعلم القراءة والكتابة المعهودتين شيئاً في كونهما واسطة لنيل العلوم أو سبباً في حفظها وتدوينها.

ولما كان الإنسان الكافر عاجزاً عن تدبر الكون، كانت حواسه معطلة من حيث الحقيقة، وإن سلمت من حيث الحس: إذ الإدراك هو المقصود من وراء الحواس، لا عين الحواس. فلما انعدم الإدراك انعدم سببه بانعدامه حكماً. وانظر قول الله تعالى عن الكافرين: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف:[١٧٩]، لما فقد الإنسان إدراكه الذي هو روح حواسه، فَقَدَ تبعاً لذلك إنسانيته ونزل عن مرتبته إلى مرتبة الدواب. بل الدواب أعلم منه بالأمر، لأنها على وحي غريزي لا تحيد عنه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ النحل: [٦٨]، ولم تنزل عن مرتبتها الأصلية كما نزل هو.

فانقسمت المرتبة الإنسانية لزوماً إلى مرتبتين:

- مرتبة الإنسان الآدمي الذي تحقق بإنسانيته.
- مرتبة الإنسان الحيواني الذي هو إنسان بالصورة فقط، لا بالحقيقة.

فكان الكافر بهذا في حقيقته حيواناً من جملة الحيوانات، ومن تدبر ما قلناه في الواقع، لوجده كما قلنا. ويكفي للدلالة على ذلك الإشارة إلى بعض الصفات التي تظهر على هذا النوع من الإنسان، والتي لا تختلف عن صفات الحيوانات المتوحشة أحياناً، وليس قصدنا هنا التفصيل.

٦ - العقل والجنون

بما أن للعقل مراتب يتميز بعضها عن بعض من حيث الإدراك، بل تتفاوت في ما بينها، فبديهي أن تنكر بعض العقول ما يدركه البعض الآخر: لخروج مدركات طائفة عن دائرة إحاطة طائفة أخرى. لذلك نجد العقول المرتبة في المراتب الدنيا، والمحصورة غالباً في قيود الحس أو الفكر، تتهم العقول المرتبة في المراتب العليا بالجنون: والجنون إن رجعنا إلى معناه اللغوي، وهو البطون أو الستر، ومنه جن الليل، والجن (والمقصود منه المخلوقات النارية أو النورية على السواء) والجنين (اسم مفعول) وهو الطفل المستور في بطن أمه، إلى غير ذلك ... إذا رجعنا إلى هذا المعنى، فإطلاق الجنون صادق لخفاء المدرك وبطونه في حق طائفة دون أخرى. ولكن إن رجعنا إلى المعنى العرفي المقصود منه أن المجنون هو من أصيب بمس من الشياطين يؤدي به إلى تخبط في التفكير وخلط في التعبير، فهو باطل. وهو ما نفاه الله تعالى عن رسله عندما اتهمهم قومهم بالجنون كما في قوله تعالى:﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ القلم:[٢]، لمثل من حكى عنهم قولهم:﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ الحجر:[٦].

يتضح من كل ما سبق، أن الجنون مراتب بحسب العقول الناظرة فيه: فالعقل المؤمن، مجنون بنظر العقل الكافر. والمحسن مجنون بنظر المسلم. وهكذا فلتقس على كل المراتب. ولا

بد هنا من الإشارة إلى أن الرسل عليهم الصلاة والسلام، أو المبلغون عنهم من أتباعهم، يتنزلون إلى العقول المرتبة في المراتب الدنيا حتى يستطيعوا إبلاغهم ما يريدون إبلاغهم إياه، رحمة منهم ورأفة وحسن تربية وحكمة.

إسلام النفس

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ آل عمران:[١٩]

بعد أن تركنا العقل الكافر الذي نزل عن مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الأنعام في سجنه الذي لا يستطيع الخروج منه إلا بإذن ربه، وتابعنا العقل السليم الموفق عند ولوجه منزل الإيمان، نواصل الآن مع هذا الأخير مسايرتنا له أثناء دخوله في المرتبة الأولى من الدين، وهي: الإسلام.

وإسلام العقل هو انقياده لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يعلم وفيما لا يعلم، في منشطه ومكرهه. هذا الانقياد يورث القلب حال التوبة إلى الله (الرجوع إليه) الذي سيلازمه في كل مراحل سلوكه التي سنعرفها لاحقاً.

والإسلام من حيث ما هو دين، هو دين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وجميع أتباعهم، وقد بدأ مع أولهم (الرسل) وأخذ يتدرج في المراحل عبر العصور والأزمان، حتى بلغ منتهاه وكماله على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أنزل عليه: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ المائدة:[٣].

وهذا التدرج الذي للدين في مدارج الكمال، إنما هو بسبب اختلاف استعدادات الأمم المختلفة. فكان كل رسول يبعث إلى قومه بما يناسب استعدادهم. ولما كانت الأمة المحمدية أشرف الأمم عند الله تعالى، وأكملها استعداداً، وكان رسولها صلى الله عليه وآله وسلم، هو

سيد الرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين، كان الدين المحمدي هو الإسلام الكامل. وبما أنه كذلك، امتنع أن يُرسل بعده رسول. إذ لو أرسل لكان إما مساوياً له وإما ناقصاً عنه: والمساواة تكرار، والتكرار لا يجوز في حق الله الواسع. كما أن النقص معاكس للحكمة لقول الله تعالى:﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ البقرة:[١٠٦]. فتبين أن الحكمة تقتضي التدرج من النقص إلى الكمال لا العكس. وظهر أنْ لا شرع بعد شرعه صلى الله عليه وآله وسلم.

جاء في حديث عمر رضي الله عنه: « بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره و شره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.(...) قال: ثم انطلق فلبث مليا ثم قال : يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[٣].

فجعل الدين كل هذه المراتب: أي الإسلام والإيمان والإحسان. ففهمنا أن مَن أكملها، كان دينه كاملاً، ومن عليه منها بقية، كان دينه ناقصاً بحسب ما بقي عليه.

---

[٣] – أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر رضي الله عنه.

١ - مرتبة الإسلام

استناداً إلى الحديث السابق، فإن مرتبة الإسلام لها أركان خمسة سنعرض لها، لكن بغير التفصيل الفقهي المعهود، إذ هذا ليس محله. وهذه الأركان هي:

أ - الشهادتان: طلب الشارع من العقل المؤمن إيماناً إجمالياً أن يُعمل جارحة من الجوارح التي تقع تحت حكمه وهي اللسان. وجعل عملها مع إقرار القلب بفحواه، شرطاً في دخول الإسلام من حيث ما هو دين ومن حيث ما هو مرتبة. والشهادتان في الحقيقة شهادة واحدة لها شقان لا يستقل أحدهما عن الآخر:

- **الشق الأول**: أشهد أن لا إله إلا الله: وهو نفي الألوهية عن الأغيار وإثباتها للإله الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باسمه " الله ".

- **الشق الثاني**: أشهد أن محمداً رسول الله: وهو إثبات الرسالة التي هي التبليغ عن الله، للرجل المكي القرشي المسمى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

مقتضى الشهادة: هو عبادة الله وحده باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والاتباع في هذا الزمان، وفي هذه المرحلة للعقل، يقتضي اتباع الفقيه العالم بالأحكام الشرعية المبيّن لها. ذلك، نظراً لانتقال شخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الدنيا.

ب - الصلاة: وهي موعد ضربه الله تعالى للعبد خمس مرات في اليوم، على هيئة مخصوصة، ليعبده ويستعينه ويستهديه، حتى يسلم له سيره قُدُماً في طريق التقرب. والصلاة أساس الدين بهذا الاعتبار، الذي يجعلها مركز الاستمداد من الله بغية الورود عليه. فمن لا استمداد له لا أهلية له؛ ومن لا أهلية له، لا قرب له.

ج - الزكاة: وهي العبادة التي تجعل الغير من أسسها المشروطة لها، فبإخراج الغني جزءاً من ماله للفقير على وجه الوجوب، تعمل الزكاة على توسيع دائرة الـ " أنا " عنده حتى تشمل

الفقير معه. وتكون بذلك عاملاً لاحماً للبنيان المسلم، مانعاً له من التصدع بسبب الأحقاد التي تنتج عادة عن صراع الطبقات، كما في المجتمعات غير الإسلامية.

د - **الصوم**: وهو عمل تنزهي تقدسي، يقطع فيه الصائم استمداده من الأكوان، وهو فتح للباب الخاص الذي للإنسان مع ربه، وتخلص من الشوائب التي تصحب التعامل مع الكون.

هـ - **الحج**: وهو عبادة كاملة يؤديها الإنسان بكليته، مهاجراً فيها إلى ربه قلباً وقالباً، منقطعاً فيها إليه تاركاً لما سواه (وهو معنى الإحرام فيه).

يتبين من خلال هذه الأركان أن عمل الجوارح، قد انضاف إلى عمل العقل، وهو بهذا (أي العقل) قد مُكن من التوصل إلى نتائج تعود عليه بتوسيع أفقه وإفساح مجال إدراكه. فصارت الأعضاء والجوارح له كالحواس، إلا أن تحصيله عن طريقها يختلف. وهو بهذا يخرج عن إدراك العقل المجرد أو العقل المسلم المجرد عنها. لذلك تجد الكافر ينكر هذه الأعمال، والمسلم يؤديها مستنداً إلى الإيمان لا إلى العلم. ونقصد بالعلم هنا، العلم بحقيقتها لا بهيئتها.

هذه الأعمال تعود على المسلم بواردات نورانية تنمي إيمانه وتؤهله إلى إدراك ما لم يكن يستطيع إدراكه فيما قبل. فانظر ما أحوج العقل إلى هذه الأعمال المشروعة، إن هو أراد أن يرقى في مدارج الكمال.

٢ - العقل في هذه المرتبة

العقل في هذه المرتبة كالعقل المجرد، هو نفس، وذلك لغلبة شهود التعين على شهود نور الوجود. فكان بذلك أن استولت الظلمة على العقل. وهو كان في مرتبة العقل المجرد، لا يدرك الأشياء إلا كما تُدرك في الليلة الظلماء. فهو إدراك تعين في ظلمة. ولم يداخل العقل من

النور إلا بقدر ما يقع التمييز به بين المتعينات وبين الظلمة الأصلية. أما في مرتبة الإسلام، وقد أمده الله تعالى بنور الإيمان المجمل، ثم بنور الإسلام، فيكون إدراكه كإدراك الأشياء في الليلة القمراء، حيث يكون الإدراك هنا إدراك تعينات بنور لكن في ظلمة.

فالعقل في هذه المرتبة والذي هو النفس، لم يخرج بعدُ من سيطرة ظلمته الأصلية. هذه الظلمة، هي السوء المشار إليه على إجمال في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ يوسف:[**٥٣**]، و﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ﴾ الأعراف: [**١٨٨**]. والسوء والظلمة مشتركان في الأصل الذي هو العدم. ومن أثر السوء على النفس، إعمالها لفكرها في الأمور الدينية بقدر يخرج بها عن حدود الانقياد للوحي. وذلك كما فعلت الفرق الكلامية حتى فرقت دينها وكانت شيعاً، وكما فعلت المذاهب التي حاولت بناء عقيدتها على أساس فكري نظري.

٣ – مدركات النفس في هذه المرتبة

أ – معرفة الله معرفة علمية عن طريق الوحي وما تضمنه من ذكر أسماء وصفات وأفعال.

ب – تبيّن العلاقة بين العبد وربه (العبودية).

ج – معرفة الآخرة ومنازلها.

د – الاطلاع على أحوال الأمم السابقة مع رسلهم وأنبيائهم، والاعتبار بها.

هـ – تمييز الأعمال والأحوال التي ترضي الله تعالى وتقرب إليه، من تلك التي تسخطه وتبعد عنه.

و – تجديد النظر إلى حياة الإنسان الدنيوية على ضوء الوحي، مما يعطي هذه الحياة أبعاداً أخرى لم تكن مدركة للعقل المجرد.

٤ – آفات النفس

النفس في هذه المرتبة، سائرة من درجة الأمر بالسوء التي قيل فيها: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾، إلى درجة اللوم التي قيل فيها: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ القيامة:[٢] فالسوء الذي ذكرناه سابقاً داخل عليها من خلف، وهو أصلها؛ واللوم داخل عليها من أمام، وهي المرتبة التي تلي هذه. لكن قبل الشروع في الحديث عنها، لا بد من الكلام عن بعض آفات النفس ومنها:

أ – إعمال الفكر في الأعمال المشروعة والعلوم المكتسبة، وذلك بنيتين:

أولاً: بنية الإتقان: فيتكلف الإنسان في هذه الحالة ما لا يكاد يطيق من التدقيق في صور إقامة الأعمال، قد تصل به إلى الوسوسة.

ثانياً: بنية تبين الحقيقة: وهو ما وقع فيه المتكلمون في تعاملهم مع الوحي محاولين في ذلك الوقوع على منطق له، يُسَكّن من ثائرة نفوسهم. فنتج عن ذلك:

نشوء الفرق: وظهور التفرقة، بحسب ما توصل إليه كل صنف من الفكر. هذه التفرقة التي كانت وما زالت أحد أسباب ضعف الأمة. إذ ما أسهل أن يتسرب التشكيك والإيهام من فرقة إلى فرقة، في هذه المرتبة، حسب قوة الصراع الفكري المحتدم بين هذه وتلك؛ مما يؤدي إلى إضعاف الجميع في النهاية.

فتح باب الضلالات: خصوصاً العقدية منها، وذلك بسبب تحكيم الفكر على الوحي. فما وافقه قُبِل، وما غَمُض عليه تُكُلِّف في إثباته، إن لم يرد بكيفية أو بأخرى. كالتأويل البعيد

الذي يخرج بالألفاظ عن أصلها الموضوعة له، أو كالجمود على ظاهر اللفظ الذي يُخِلّ بالمعنى المقصود للنسق التركيبي الذي يوجد ضمنه اللفظ؛ وإن كان النوع الأول أخطر.

وإن كانت الآفة الأولى أدت إلى ضعف الأمة من حيث ما هي جسد واحد، فإن هذه الثانية تؤدي إلى ضعف في الإيمان ونقص في الإسلام، لمّا كانت منافية لأصلهما الذي هو التصديق والانقياد.

ولا بد هنا أن نلاحظ ما يلي:

- أن الدين بطبيعته غيب وشهادة. فالشهادة ما يعلم منه على وجه الإحاطة كالعلم بإقامة الصلاة وشروطها وأركانها مثلاً. والغيب هو ما لا يحاط به كتأثير الصلاة في نفس الإنسان على وجه ربط السبب بمسببه.

- أن الإدراكات متفاوتة بين الأشخاص: فما يدركه هذا قد لا يدركه ذاك. وما هو شهادة لهذا قد يكون غيباً لذاك. خذ على ذلك مثلاً عامياً مع فقيه، يتبين لك الأمر.

إذا تقرر ما قلناه، علمنا أنه لا منجى للإنسان إلا الانقياد للوحي انقياد المؤمنين حقاً، لا انقياد المؤمنين المقيدين بالنظر. لأن هذا النوع الأخير في الحقيقة، إنما هو منقاد لنفسه لا لربه، وحكمه النهائي على الشيء له لا لربه، وهو سوء أدب كبير مع الله تعالى، إن لم يكن أكثر من ذلك.

ظن بلوغ النهاية: وذلك كما يعتقد أغلب العامة إذا أدوا الأركان الخمسة لمرتبة الإسلام، فيعتقدون أن دينهم (تدينهم) قد كمل. وهو خلاف الحق مدلولِ حديث عمر رضي الله عنه الذي أوردناه سابقاً. وهم إن سلّموا بالزيادة والترقي، فإنما يحصرونها في جنس الأعمال التي هي الأركان، أو في العلم بالأحكام وإتقان أبوابه وفنونه. فالتفاوت بين الناس عندهم، إنما هو بحسب الإقلال أو الإكثار من ذلك كله.

وقد أثرت هذه الآفة في الأمة الجمود، حتى أصبح الدين أحياناً صورة لا روح لها، وصارت الأعمال المشروعة غاية في ذاتها، بعد أن كانت وسيلة. وصار همّ أكثر الناس، الإتيان بها بشكل شبه آلي، للتفرغ بعد ذلك للدنيا والانغماس في حلالها وحرامها.

الاعتداد بالعمل والمنّ به: يحدث هذا للمرء عندما يقوم بأداء الأركان، وأحياناً بأداء القليل منها مع كثرة المخالفة. فيداخله إحساس بأنه قد أدى ما عليه، وأنه أفضل من كثير من خلق الله، وأنه داخل في دائرة الصالحين من الأمة، وأنه يستحق على ذلك العمل الأجر الجزيل عند ربه. وهو ما يدخله في المن على الله. وما وقع من وقع في مثل هذا إلا لظنه أن عمله مخلوق له، وأن قدرته هي المخرجة لذلك العمل من العدم إلى الوجود. وربما إن سألته في ذلك يقول: هو بتوفيق الله وفضله. ولكن ليس كلام اللسان كما استقر في الجَنان. وهو ما يفتح عليه باب الرياء أيضاً. ولمثل هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ الصافات:[٩٦]، ويقول أيضاً: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ الحجرات:[١٧] أي هداكم للإيمان الذي هو أصل الإسلام، هذا إن كنتم صادقين في إسلامكم.

فالمنة لله لا لغيره بأي اعتبار شئت.

حب الدنيا: وسبب ذلك قرب إدراك الحياة الدنيا من النفس، وبعد إدراك الآخرة عنها. ورغم انتشار هذه الآفة وعمومها العالم (في العرف) والجاهل، فقد أغفل الناس ذكرها والتحذير منها. وإن حب الدنيا يقيد القلب إلى السفل ويعوقه عن طلب معالي الأمور. بل ويتسبب له في معصية الله ومخالفة أمره من أجل قضاء مآرب زائلة. وهذا ما يناقض الإيمان بالآخرة والعمل لها، اللذين بهما نجاة النفس.

وقد حذر الله عباده من الوقوع في حبال الدنيا بأمثال قوله تعالى:﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام:[٣٢] فمن صرف عمره واهتمامه لها، فهو طفل من حيث الاعتبار العقلي. إذ لا يشتغل باللهو واللعب إلا الأطفال. وقال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[٤]، وقال عنها أيضاً :« الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»[٥].

٥ - رجال هذه المرتبة

رجال هذه المرتبة هم عموم المسلمين، وأئمتها هم الفقهاء (بالمعنى العام) العالمون بأحكام الشرع المبيّنون لها.

٦ - الفكر في مرتبة الإسلام

حتى لا يقول المغرضون إن الإسلام ضد العقل - وما يعنون بالعقل إلا الفكر، لكنهم لا يميزون بين المعاني - فسنبين مجال الفكر في هذه المرتبة:

فإضافة إلى تدبير شؤون الحياة العادية، والاشتغال بالعلوم الدنيوية، اللذين أثبتناهما للعقل المجرد، فإن للفكر في مرتبة الإسلام مجالاً آخر وهو:

أ - استنباط الأحكام من النصوص الشرعية، ذلك أن النص قد لا يكون واضح الدلالة بالنسبة لجميع الناس، فيحتاج إلى إعمال الفكر بوسائله المعهودة المذكورة في الباب الأول، للتوصّل إلى الحكم الشرعي.

---

[٤] - أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٥] - أخرجه ابن الأعرابي في الزهد وصفة الزاهدين بلفظه وأبو نعيم في الحلية عن جابر رضي الله عنه.

ب – تنزيل الأحكام المتبيَّنة على الوقائع المختلفة باختلاف الزمان والمكان والحال، مما يجعل الأحكام بحاجة إلى متابعة دائمة، وإعمال للفكر باعتبار كل المتغيرات. وهو ما اختصت به المذاهب الفقهية المعروفة عبر الأزمان، مع قصور كبير في عصرنا الحالي.

ج – التصدي للأفكار الفاسدة الواردة على الأمة الإسلامية من قِبل الأمم الأخرى، والعقائد الدخيلة التي قد تشكل خطراً على سلامتها، كما يفعل ذلك كثير من المفكرين في عصرنا عصر العولمة أعانهم الله على ذلك.

د – العمل على تنظيم الأمة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، بشكل متوافق مع الإسلام عقيدة وعملاً. وهو ما نحتاج إليه كثيراً في عصرنا، الذي ورثنا فيه من المستعمر نُظُماً تعارض الإسلام صراحة. مما يجعل المسلم يعيش حالة ازدواج موهنة، بحيث إنه لا يصل إلى نتائج تذكر في حياته، برغم بذل المجهود.

الفصل الثالث

إيمان القلب

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ التغابن:[١١]

إذا كانت المرتبة الأولى للعقل هي مرتبة النفس، فإن هذه المرتبة مرتبة القلب، كما أن مرتبة الإيمان هي قلب الدين. فهي بين إسلام وإحسان، بل هي عينهما لكن باعتبارين مختلفين. ثم إن هذا الإيمان الذي نحن بصدده، هو تفصيل الإيمان المجمل الذي ذكرناه سابقاً، والذي هو عُمدة مرتبة الإسلام.

وهذا التفصيل تجسيد لقرب العبد من ربه. إذ البعد يعطي الإجمال والقرب يعطي التفصيل. هذا الإيمان هو الذي ورد ذكره في قول الله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ الحجرات:[١٤]. و" لما " التي تفيد الترقب، جعلتنا ندرك أن هذا الإيمان بعد الإسلام، وهو على الحقيقة تحقيق له وترسيخ وتصحيح. وعلى هذا فلتفهم قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ النساء: [١٣٦]: أي يا أيها الذين آمنوا الإيمان المجمل، آمنوا الإيمان المفصل كما سبق أن ذكرنا.

وبالرجوع إلى الآية السابقة، وإلى حديث عمر رضي الله عنه، الذي أوردناه في أول الباب، يتضح أن لمرتبة الإيمان هذه ستة أركان، هي أصل شُعَبِ الإيمان التي تتفرع في الدين جميعه عبر مراتبه الثلاث، والتي أشار إليها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الإيمان بضع وسبعون، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان »[٦].

١ – العقل في هذه المرتبة

بعد أن كان للعقل بابان في مرتبة التجرد، وهما الحواس والفكر، انفتح له في مرتبة الإسلام باب العمل الشرعي الذي يثمر له نوراً يزيد في انفساحه كما رأينا. فصار العقل الآن بموجب مرتبة الإيمان مقبلاً على أفق جديد، سيزيده قوة في إدراكه الأول، وإدراكاً جديداً هو: الوجدان.

والوجدان: إدراك حسي، لكن لا بالحواس الظاهرة التي تجاوزناها في مرتبة العقل المجرد. بل بحواس باطنة للقلب، كانت شبه معطلة إلى الآن.

وقد نبه القرآن إلى هذه الحواس في مواطن كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ الحج: [٤٦].فانظر كيف جعل العمى الحقيقي الذي هو عدم الإدراك للقلوب وليس للأبصار الظاهرة. وبهذا فإن الأبصار إن عميت ولم تعم القلوب، فإن ذلك لن يحجب الإنسان عن إدراك الحقيقة، بعكس ما إذا عميت القلوب وصحت الأبصار. ومنها قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ

[٦] – أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَأَبْصَـٰرِهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ النحل: [١٠٨]، هذا رغم سلامة حواسهم الظاهرة كما أسلفنا. ومنها قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يونس:[٤٢] !..

وقد ذكر هذا الوجدانَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله:« ثلاث من كن فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »[٧].

بقي أن نقول: إن هذه الحواس الباطنة التي يتحقق بها الوجد (أو الوجدان أو الوجود)، بالنسبة إلى الحواس الظاهرة، هي كالروح للجسد أو كالمعنى للفظ، كما سنبين فيما يلي:

٢ – الحواس الظاهرة والباطنة

إذا تأملنا الحواس الظاهرة، وجدناها مختلفة المدارك، على ترتيب معين في قرب هذا الإدراك من العقل: فالطفل أول ما يستعمل من حواسه، حاسة اللمس. وهي أعم الحواس بعموم الجلد الجسم كله. وأكثرها مباشرة للمحيط الذي يحيط بالإنسان. ثم تليها حاسة الذوق، وهي أخص منها، وإن كانت تعتمد على المباشرة أيضاً. ثم تليها بعد ذلك حاسة الشم. وهي غير مباشرة، أو قل مباشرة لكن على لطافة في هذه المباشرة: لأنها تدرك الغازات الناتجة عن الأجسام (وهي جزء متحول منها) لا الأجسام ذاتها. ثم تلي حاسةَ الشم حاسةُ السمع وهي ألطف منها في الإدراك، لأنها تدرك الأصوات الناتجة عن تأثير الأجسام في الهواء، لا الأجسام ذاتها. ثم تليها حاسة البصر. وهي ألطف الجميع مع عدم مباشرتها للأجسام، إلا ما ينعكس من الضوء المسلط عليها إلى العين.

---

[٧] – أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

فانظر التدرج الحاصل في إدراك المحيط عبر الحواس من الكثافة إلى اللطافة.

وإذا رجعنا إلى الحواس الباطنة، وجدنا الوجد العام هو أعم هذه الحواس، ثم يليه الذوق الخاص، ثم يليه الشعور، ثم يليه الفهم، ثم تليه الفراسة.

٣ - أركان الإيمان

أ - الإيمان بالله

هذا الإيمان هو إدراك انفعالي لصفة الوجود خاصة، ولباقي الصفات بالتبعية. وهو إن قورن بالإيمان المجمل، كان هذا الثاني منه، كالقول من الفعل لما بينهما من فارق.

ينتج هذا الإدراك الجديد للمرء انجذاباً إلى الجناب الأقدس. يخلخله عن الاعتماد على نفسه، ويورثه حال التوكل على ربه في جميع أموره، لما يشهده من استتباع أحكام الربوبية لأحكام العبودية. وهو ما يناقض الاستقلالية التي كان يظنها لنفسه فيما سبق من المراتب. وقد ذكر القرآن هذه الحال في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ التغابن:[١٣]، أي المؤمنون به. وهذا التوكل أمر منطقي يقبله العقل بسهولة بعد حلوله في هذه المرتبة، بل ويستغرب كيف أنه كان غائباً عنه في ما مضى.

ب- الإيمان بالملائكة

وهي مخلوقات نورية، منها مُسخَّرة وغير مُسخَّرة. وهي على مقامات مختلفة فيما بينها ومتفاوتة. هذه المخلوقات لا تأكل ولا تشرب ولا تتناسل. وهذه كلها صفات نزاهة وتقدس.

والإدراك الانفعالي لهذا الركن، يثمر حال الزهد. للمناسبة التي بين الملائكة والزاهد. فنجد المرء في هذه المرحلة يقلل من التعلق بالأسباب، بسبب ميل نظر قلبه إلى مسببها، ويكتفي منها بما هو ضروري أو يقارب. وذلك نظراً لمتطلبات البشرية ومراعاة لأحكامها.

الزهد المشار إليه هنا يُعقب القلب راحة وطمأنينة بقدر تحرر القلب من العلائق. وهو مضمن قول الله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ الحديد:[٢٣]. وهذا الركن الثاني مرتبط، بل مشروط بسابقه، كما أن ثمرته مشروطة بسابقتها.

ج – الإيمان بالكتب

والكتب ما نزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام من الوحي الإلهي، على وجه العموم والإجمال. والوحي إما إخبار وتعريف وجب قبوله؛ وإما تكليف وجب القيام به وأداؤه.

وبما أن التكليف أمر ونهي، فقد اقتضى القيام به الصبر، لمجاهدة النوازع المخالفة، الداعية إلى النقيض. فكان حال هذا الركن هو: الصبر.

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المخالفة، وصبر على القضاء. والذي يعنينا هنا هو النوعان الأولان. وقد جاء في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وآله وسلم: « الصوم نصف الصبر »[٨]. والصوم لغة: الترك. بقي أن النصف الآخر هو الفعل. وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه في تقسيم الصبر. ثم تأمل قوله صلى الله عليه وآله وسلم:« الصبر نصف الإيمان »[٩]. وانظر مرتبة حال الصبر من أركان الإيمان، تجدْها الثالثة. والثلاثة نصف الستة.

---

٨ – أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده عن جُرَيٍّ النَّهديِّ عن رجل من بني سُلَيْم وإسناده حسن.

٩ – أخرجه الشهاب في مسنده وأبو نعيم في الحلية والخطيب في تاريخه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وإسناده حسن.

د – الإيمان بالرسل

الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهم الأمثال البشرية التي ضربها الله للناس. لقوله تعالى في حق سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الزخرف:[٥٩]. هؤلاء الأمثال إلى جانب تبليغهم لنا ما أمروا بتبليغه، قد جسدوا التفاعل على الكمال مع الدين (التدين). وظهرت عليهم ثماره على التمام، على تفاوت فيما بينهم في كل ذلك: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ البقرة:[٢٥٣]. فالكمال الأكمل لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والكمال الذي دونه، لمن سواه من الرسل والأنبياء والوارثين.

والرسل في حقنا نوعان:

– رسل بلغنا خبرهم: وجب علينا تجاههم التصديق.

– ورسول نتبعه وننتسب إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وجب علينا تجاهه التصديق والمتابعة. سواء فيما اختص به صلى الله عليه وآله وسلم من شرع، أو فيما أقره صلى الله عليه وآله وسلم من شرع سابقيه، وهو شرع له أيضاً باعتبار تقريره.

ولنعد إلى الخصائص التي للرسل وهي:

التبليغ: لو أرسل الله إلى الناس ملكاً مثلاً، وبلغ عنه أوامره، وأدرك الناس ووعوا ما بُلّغوا، لبقي مع ذلك جانب يخفى عليهم ويصعب استيعابه، وهو تنزيل تلك الأحكام المبلَّغة على بشرية الإنسان، بكيفية عملية تؤدي إلى القيام بأمر الله على الوجه المراد له سبحانه. ولا يخفى ما في غياب هذا الجانب من عنت لمن يريد سلوك السبيل إلى رب العالمين.

فالرسل بهذه المثابة، كتب عملية تُقرأ. وتأمل بهذا الخصوص قول سيدتنا عائشة رضي الله عنها في حق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حين قالت: « كان خلقه القرآن »[١٠]، تعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان نسخة قرآنية خلقية (أي علمية عملية). لأن الأخلاق لها أصل علمي وثمرة عملية. وهذا المعنى الذي ذكرناه في التبليغ، هو الذي أشار إليه قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ الإسراء:[٩٥]، أي لتحقيق التبليغ على الكمال.

الشهادة: الرسل بهذا الاعتبار كالمَوازين الحية أو المسطرات المرقمة التي يقيس إليها الناس أنفسهم، حتى يعرفوا مقدار ما بلغوه من الكمال. وهذا الذي ذكرناه معنى من معاني الشهادة التي لهم على أقوامهم وأممهم. وذلك كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ البقرة:[١٤٣]، أي مرجعاً ترجعون إليه حتى تعلموا مراتبكم ومنازلكم منه.

الشفاعة: والمعنى الذي نقصده بالشفاعة، زيادة على المعنى الشائع الذي هو طلب العفو والتجاوز والمغفرة من الرسل لأممهم عند الله تعالى، هو فتح مغاليق طريق السلوك والسيرِ إلى الله تعالى، بسؤاله سبحانه وتعالى لأتباعهم حتى ينالوا من ثمرات السلوك ما لم تبلغه هممهم ولا أعمالهم.

وتأمل ما في إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام من رحمات مطوية، لا يسع المرء حيالها، إلا شكر الله على نعمه التي هم أعظمها. حتى أن بعض المفسرين قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يونس:[٥٨]، قال: فضل الله ورحمته هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهو ما أشرنا إليه.

[١٠] – أخرجه أحمد في مسنده بلفظه وعند مسلم في صحيحه سأل أحدهم عائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خُلُقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خُلُقَ نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن.

والشكر الذي هو حال هذا الركن، شكران:

- شكر علمي: هو أن يعلم الإنسان أن النعمة من الله وحده.

- وشكر عملي: هو الرغبة في الاستزادة من العمل، حباً في مقابلة النعمة بما يناسبها من الطاعة والموافقة.

هـ - الإيمان باليوم الآخر

إن الموت الذي كان يقف في وجه الفكر في مرحلة العقل المجرد، والذي لم يكن يجد له تفسيراً، بل كان كثيراً ما يتجنب الخوض فيه ويحاول تناسيه؛ صار فيما بعد من المراتب، وبعد توسع آفاق العقل، يجد له معنى يتماشى والمنطق الإيماني، وترتيباً مناسباً ضمن التسلسل الحياتي للإنسان بمعناه الشامل.

هذا الموت هو الفاصل بين المرحلتين الهامتين من حياة الإنسان: الحياة الدنيوية، والحياة الأخروية: حياته الدنيوية التي هي محلّ التكليف، وحياته الأخروية التي هي محلّ الجزاء. ويوم الجزاء (يوم الدين) أو يوم الحساب، هو الحاسم لمصير الإنسان: فإما نعيم مقيم، وإما عذاب أليم.

لذلك كان الإدراك الانفعالي لهذا اليوم، يورث حالين: حال رجاء (للنعيم)، وحال خوف (من العذاب). والخوف والرجاء معاً سيمكنان القلب من تمام الاعتدال على الصراط المستقيم، الذي هو سالكه إلى ربه، إن استويا عنده. كما أنهما من أنفع العلاجات القلبية في الأحوال المختلفة العارضة له. فهو عندما يرى نفسه (أي الإنسان) وقد داخله العُجب إن هو أحسن العمل وأجاد، أخرج الخوف وألقاه على تلك الحال، فعاد بذلك إلى الصحة القلبية

والعافية؛ وإن هو ارتكب ما يقنطه أو يجعله يدبر عن ربه، أخرج الرجاء فألقاه على تلك الحال، فعاد بذلك إلى استئناف ما كان عليه قبل الوقوع في الزلل.

و – الإيمان بالقدر

القدر هو خروج الأشياء من الغيب إلى الشهادة، بحسب ما جرى به القضاء في العلم الإلهي، وبحسب ما ترتبه الحكمة الإلهية. وهو نوعان:

– **خير**: وهو ما لاءم غرض المرء حالاً أو مآلاً، أو هما معاً.

– **شر**: وهو ما خالف الغرض.

والإدراك الوجداني للقدر يثمر للقلب حال التسليم، الذي يريح الإنسان من مصارعة القدر. هذه المصارعة التي لا يخرج منها بطائل، بل على العكس من ذلك، تورثه الهم والغم دون تحقيق مراد. ولسنا هنا بصدد الرد على العقول المجردة التي تنازع فيما نقوله بغير علم، إذ هذه ليست مرتبتها.

ثم نقول إن التسليم إذا استحكم من القلب وصاحبته المحبة، أثمر حالاً أعلى، وهو الرضى الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ التوبة:[١٠٠]. وهو تمام مرتبة الإيمان، وقمة راحة القلب والاطمئنان: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ الرعد:[٢٨]، وكل الأحوال التي عرضنا لها في مرتبة الإيمان هي من قبيل ذكر الله تعالى القلبي الوجداني.

٤ – المأخذ الثالث للعقل

كنا قد عرفنا خلال الباب الأول أن للعقل مأخذين هما: الحواس والفكر، وأرجأنا الحديث عن المأخذ الثالث إلى ما بعد تلك المرحلة، وها قد جاء الأوان لنبين أن المأخذ الثالث للعقل هو: الإلقاء أو الكشف.

ففي مرتبة الإيمان يفتح الله للقلب أبواباً لا يستطيع ولوجها بفكره، ولا استكشافها بحواسه، بل بتعليم من الله له، رحمة منه وفضلا؛ كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى:﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة:[٢٨٢]، وكما نبه إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر »[١١].

فليس للقلب في هذه المرتبة تَعَمُّلٌ، بل له القبول لما يفتح الله له. وكفى بأهل هذه المرتبة شرفاً، أن يتولى الله تعليمهم. فأين هم ممن يأخذ علمه عن مخلوق مثله!

٥ – الأخلاق المنبثقة عن مقامات الإيمان

من الأخلاق المتفرعة من الأحوال التي ذكرناها عند الكلام عن أركان الإيمان، على سبيل التنبيه لا الاستيفاء، ما يلي:

حسن الظن بالله، السكينة، العفو، القناعة، الحياء، احتمال الأذى من الغير، الحرص على التزود من التقوى، إمهال الغير وإيجاد الأعذار لهم، عدم المن على الغير، النفور من المخالفات ولزوم الطاعات، عدم الانتصار للنفس، عدم المنازعة للغير إلا بأمر شرعي، حب الخير للغير، الحب في الله والبغض فيه، النصيحة ... إلى غير ذلك من الأخلاق.

[١١] – أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ له ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

ولا شك أن من اتصف بهذه الأخلاق، واجد لحلاوة الإيمان التي أشار إليها الحديث النبوي الذي ذكرناه في أول الفصل، وذائق لطعمه كما أبان ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، و بالإسلام ديناً، و بمحمد رسولاً »[١٢]. ومن خلال الحديثين المذكورين آنفاً، يتضح أن ذوق الطعم هو وجد عام، ووجدان الحلاوة هو ذوق خاص. وإن تأملت شروط الوجد وشروط الذوق المذكورة في الحديثين، تبين لك ما قلناه بمقارنة تلك الشروط إلى بعضها. وذلك مثلاً كمقارنة الرضى بالإسلام ديناً، مع كراهة أن يعود في الكفر. فلا يخفى أن هذا الثاني متضمن لسابقه وزيادة.

٦ – أركان الإسلام في مرتبة الإيمان

لا شك أن أركان الإسلام ستكتسِب في هذه المرتبة الإيمانية، بُعداً لم يكن لها في البداية. فمن ذلك:

– صارت الشهادة حالية بعد أن كانت مقالية فحسب.

– صارت الصلاة بالخشوع الذي هو روحها، بعد أن كانت صورة فحسب.

– صارت الزكاة تعاملاً مع الله تعالى بأدب، بعد أن كانت تعاملاً مع العبد بأمر الله فحسب. و صارت أخذاً في بذل، بعد أن كانت بذلاً فحسب.

– صار الصوم يعمُّ جميع الجوارح بعد أن كان مقتصراً على الشهوتين فحسب.

– صار الحج، حجاً إلى الله تعالى بعد أن كان حجاً إلى البيت فحسب.

[١٢] – أخرجه مسلم في صحيحه عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

كل هذا العمق، إنما اكتسبته الأعمال من الانفساح الذي طرأ على القلب وانعكس عليها. وهذا هو بعينه ما أشار إليه الحديث النبوي الشريف:« الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان »[١٣].

٧ – رجال هذه المرتبة

رجال هذه المرتبة هم المريدون الذين اشتغلوا بعمارة بواطنهم عبر عمليتي التخلية والتحلية: تخلية من الرذائل وتحلية بالفضائل؛ وجاهدوا نفوسهم في سبيل ذلك طامعين في أن يكونوا ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ العنكبوت:[٦٩]. وأئمة هذه المرتبة هم عامة الصوفية الذين تحققوا بالمقامات المذكورة سابقاً، وصاروا دعاة إليها بعد ذلك. وهم أطباء القلوب العالمون بأدوائها وأدويتها.

٨ – ضرب مثل

إذا كان سلوك العقل في مرتبة التجرد، كالناظر في الظلمة، وسلوك النفس كالناظر في الظلمة على نور، فإن سلوك القلب كالناظر في وقت السَّحَر. وهو وقت اختلاط النور

---

١٣ – أخرجه ابن ماجه في سننه وغيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال ابن الجزري في مناقب الأسد الغالب ص[٧٤–٧٥]:حديث حسن اللفظ والمعنى رجال إسناده ثقات غير عبد السلام بن صالح الهروي وهو خادم الإمام علي بن موسى الرضى فإنهم ضعفوه مع صلاحه، ثم قال نقلاً عن البيهقي: وشاهد هذا الحديث ما في الحديث الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدد شعب الإيمان فخرج أبو الصلت من عهدته. وفي الجملة حيث صح السند إلى أحد هذه الذرية الطاهرة فالحديث إما صحيح أو حسن أو صالح محتج به ولكن الكلام فيمن بعدهم. وقال ابن ثرثال في جزئه: حدثني حسن الإسكاف، عن أبي الصلت الهروي وهو عبد السلام بن صالح، قال: حدثنا علي بن موسى، فذكر هذا الحديث، قال: حسن، فذهب أصحاب الحديث بهذا إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، فقال لهم: هذا إسناد هاشمي وعلي بن موسى ثقة رضا، وهذا ديني الإيمان قول وعمل عليه أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله.

بالظلمة. فتقلّبه وتردده بين ظلمة ونور أعطاه هذه المرتبة التي ليس بعدها إلا طلوع الشمس، الذي هو منتهى الإدراك العقلي.

٩ – آفات هذه المرتبة

من آفات هذه المرتبة:

أ – القناعة بما تحقق من الوجدان وثمرات الإيمان.

ب – الركون إلى الكرامات.

ج – الانجذاب إلى الباطن انجذاباً يُخلّ بالظاهر.

د – الاغترار بالأحوال.

هـ – الشرك الخفي الذي ما زال القلب لم يتخلص منه بعد.

و – المبالغة في احتقار النفس بقدر يجعل المرء يَرُدُّ دواعيَ الترقي الباطنية التي تَرِدُ عليه.

ز – التراجع أمام البلاء: لارتباطه بهذه المرتبة. وذلك لقول الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ العنكبوت:[٢ – ٣].

وارتباط البلاء بمرتبة الإيمان ارتباط عضوي. فبما أن الإيمان تصديق، صار لزاماً تمحيص دعوى التصديق هذه، هل هي حقيقية أم لا؟ ولا سبيل إلى ذلك إلا بالبلاء الذي هو الاختبار. فبعد البلاء يتبين الصادق من الكاذب، كما ورد في الآية المذكورة سابقاً. فإن قلت: كيف رُبط البلاء بعلم الله للصادق والكاذب، وهو العليم بخلقه قبل إيجادهم؟ قلنا: في البلاء:

- إفادة للعبد بعلم صدقه أو كذبه في نفسه، أو صدق غيره من كذبه، بعد أن كان جاهلاً بأمر نفسه أو بأمر غيره.

- لكن في حق الله تعالى، لا يجوز ما ذكرناه في حق العبد. وإنما المراد بالعلم في الآية هو الخبرة التي هي العلم مضافاً إلى الذوق أو التجربة، لا غير. فهو العليم بخلقه قبل خلقهم، الخبير بهم بعد خلقهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الملك:[١٤] سبحانه وتعالى.

الفصل الرابع

إحسان الروح

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ النحل:[١٢٨]

الإحسان لغةً، هو الإتقان والتجويد. فكان بهذا المعنى إحساناً للإيمان وإتقاناً له وتكميلاً.

وبالرجوع إلى حديث عمر رضي الله عنه، هو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك. فتبين لمرتبة الإحسان ركنان:

١ - ركنا الإحسان

أ - فإن لم تكن تراه، فإنه يراك: هذا هو الركن الأول وإن تأخر في اللفظ. لأن الأسلوب الذي ورد به الحديث، يوحي بالانتقال من الأعلى إلى الأدنى، باستعمال " فإن لم تكن " التي تفيد التعذّر. وهذا الركن بين نفي هو: " فإن لم تكن تراه "، وإثبات هو : " فإنه يراك ". فنفيه مقابل لمرتبة الإيمان. وإثباته مقابل لمرتبة العيان. فكان بذلك برزخاً بين المرتبتين: مرتبة الإيمان ومرتبة الشهود والعيان.

وحال هذا الركن هو: المراقبة.

والمراقب بين إيمان وعيان: فلا هو مؤمن بغيب وحسب، ولا هو مشاهد. والمراقبة هي عكوف قلب العبد عند باب ربه، لا يبرحه. مع ما يتبع ذلك من أدب وتأهب للاستجابة.

ومن داوم قرع الباب، يوشك أن يفتح له، كما قيل. وهذه المراقبة التي تحدثنا عنها تفيد القلب الشعور والفهم الذي هو روح السمع، أو قل هي السمع الحقيقي. وهي إن استحكمت في القلب وتمكنت منه، كانت سبباً إن شاء الله تعالى للعبور إلى الركن الثاني الذي هو:

ب – أن تعبد الله كأنك تراه:

وهو المشاهدة والعيان. فقد ورد في الحديث الشريف:« ليس الخبر كالمعاينة »[14].

والمشاهدة للبصيرة (حاسة البصر الباطنة) التي هي روح البصر الظاهر. لكن لا على ترتيب عملية الإبصار العادية أثناء تعاملها مع المبصرات. فإن الله تعالى عزيز، إذا شاء أن يتجلى لعبد من عباده، كان ذلك منه لا من العبد. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الأنعام:[١٠٣]. فكما أنه سبحانه لا يدركه فكر، كما رأينا سابقاً وفي محله، كذلك لا تدركه حاسة من الحواس، باطنة أو ظاهرة، بل لا يدركه مخلوق من المخلوقات على التحقيق.

ولا بد أن نلاحظ أسلوب التشبيه الذي ورد في اللفظ النبوي باستعمال الكاف، بخلاف الرؤية الأخروية التي ورد ذكرها بغير هذا الأسلوب. فنقول: إن الله تعالى لا يتقيد بصورة. وبما أن الدنيا محل التكليف، والتكليف ابتلاءً، نتيجته إما موافقة للحق وإما مخالفة؛ وخوفاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الرؤوف الرحيم، على أمته، ومبالغة في النصيحة لها، أورد هنا التشبيه بالرؤية. وهو ما عبر عنه أتباعه من أهل الحق بالمشاهدة، أدباً منهم معه صلى الله عليه وآله وسلم، وعلماً بحقيقة الأمر. أورد هذا التشبيه حتى لا تقيد أمته الله تعالى بصورة معينة، كما فعلت بعض الأمم فضلت بذلك. فإن قلت فما باله صلى الله عليه وآله وسلم لم ينبه على ذلك في رؤية العباد ربهم في الآخرة؟ قلنا:

---

[14] – أخرجه أحمد في مسنده والطبراني في المعجم الأوسط والحاكم في مستدركه وابن حبان في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أولاً: لأن الآخرة ليست محل تكليف، فهو لا يخاف على أمته الخطأ هناك.

ثانياً: إن نشأة الآخرة تعطي الإنسان ما لا تعطيه نشأة الدنيا.

وهذا الركن هو إثبات محض ووجود خالص. ذلك أن هذه المرتبة للروح. والروح قد قال فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ الحجر:[٢٩]. فنسبه إليه. وهو سبحانه الوجود الحق. فكان ما ينسب إليه وجوداً لا يخالطه العدم بحال من الأحوال. وفي هذه المرتبة انتفت عن العقل ظلمته الأصلية بطلوع شمس نوره الوجودية. فانكشف له ما لا يحيط به العد، وما تقصر عنه العبارة والحد. فتحقق بدرجة المحبوبية التي ورد فيها: « .. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها .. »[١٥]، و كان العبد هنا ممن علمه الله من لدنه علماً كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ الكهف:[٦٥]. وهو علم خاص منه سبحانه وتعالى إلى عبده لا يطلع عليه مخلوق من المخلوقات السماوية أو الأرضية. وهو معصوم من الخطإ، على عكس ما تظنه العامة. ومرجع ظنهم جهلهم بهذه المرتبة. لكن هذا العلم يبقى محلاً للتفاوت بين رجال هذه المرتبة. فنجد منهم العالم والأعلم. فهذا حظهم من الخطإ إن كان هناك خطأ. وفي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر دليل على ما قلناه لمن تسلح بالإنصاف.

ولا يقولن أحد أن ذلك خاص بالخضر وحده، لأن لله رجالاً في كل زمان على شاكلة الخضر من هذا الوجه. ومن سأل أهل الذكر علم ما لم يكن يعلم.

٢ – العقل في هذه المرتبة

يقول الله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ النحل:[٩٠].

---

[١٥] – جزء من حديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فالعدل هنا، هو استواء بين طرفين، وهو للقلب الذي هو بين نور وظلمة.

والإحسان هو لغلبة النور وانفراده. فكان العقل هنا نوراً محضاً. وهو طلوع الشمس واستواؤها في نهار الروح، بعد ليل النفس وسَحَر القلب اللذين ذكرناهما سابقاً.

ولكي تعلم أن الوجود الإنساني بين نور وظلمة، يختلف حكمه باختلاف غلبة أحدهما عليه أو استوائهما، انظر إلى قول الله تعالى (من باب الإشارة): ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ الشمس: [١] وهي نور في ظهور ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ الشمس: [٢] وهو نور في بطون ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ الشمس: [٣] وهو أوان الظهور ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ الشمس: [٤] وهو أوان البطون ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ الشمس: [٥] للترقي ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ الشمس: [٦] للنزول والابتلاء ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ الشمس: [٧] للتكليف ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ الشمس: [٨] للتمييز ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الشمس: [٩] للسعادة والتشريف في المآل ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الشمس: [١٠] للشقاء في المآل.

جعلنا الله وإياك من أهل النور المحض.

٣ - أركان الإسلام في هذه المرتبة

تبلغ أركان الإسلام عمقاً في هذه المرتبة لم تبلغه في سابقتيها، فهي:

- شهادة: عن شهود.
- صلاة: بقرة عين وورود.
- زكاة: للأسرار.
- صوم: عن الأغيار.
- حج: للحضرة مع الأوقات.

٤ – آفات هذه المرتبة

لهذه المرتبة آفتان هما:

– الغفلة العارضة، لا المستحكمة.

– الاستغناء بالله، الذي لا يصح.

٥ – رجال هذه المرتبة

رجال هذه المرتبة هم أهل الله وخاصته. الذين ليس لهم نظر إلا إليه، ولا مقصد إلا إياه. والذين علموا منه سبحانه ما لم يعلمه غيرهم. وأئمتها هم الأكابر من أولياء الله الوارثون لعلم النبوة، القائمون بالله له، الدالون به عليه، المسلمون وجوههم له إلى الأبد، الساجدون له في حضرته من غير رفع، الذين خرجوا من كل قيد في عين القيد، أحباء الله الذين من نظر إليهم ذكر الله.

وليس وراء هذه المرتبة مرتبة تطلب، إلا الزيادة منها. أي الزيادة من العلم بالله سبحانه وتعالى، لقوله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ طه:[١١٤]. فلم يأمره بالاستزادة من شيء إلا من العلم. فلا نهاية للعلم بالله أبداً، دنيا وأخرى، لأن الله تعالى لا نهاية له: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الإسراء:[٨٥].

الفصل الخامس

الترقي في المراتب

١ – العقل والدين

إذا نظرنا إلى العلاقة بين الدين والعقل، وجدنا أن كلاً منهما يكمل صاحبه. فالعقل بدون دين قاصر، والدين بدون عقل باطل. لذلك كان العقل شرطاً كما هو معلوم في التكليف، وكان الدين شرطاً للعقل في التعريف.

٢ – عبودية الإنسان

قد يتوهم البعض أننا عندما تكلمنا في الإحسان، كنا نقصد رفع العبودية عن الإنسان، بما أشرنا إليه من النور المحض والوجود التام. وهو غير الحقيقة التي نرمي إليها. ذلك أن العبودية مقابل الربوبية. وأحكامها مقابل أحكامها. فلا سبيل إلى رفعها البتة. وإلا لما تميزت المرتبتان: مرتبة العبودية ومرتبة الربوبية. وكيف يرجى رفعها وهي زينة الإنسان؟ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ الإسراء:[١].

غير أن للعبودية مراتب بموازاة المراتب التي مررنا بها، نذكرها على سبيل الاختصار:

أ – في مرتبة العقل المجرد: تكون العبودية قهرية، إذ لا يخرج عن العبودية لله كافر ولا مؤمن. إلا أن هذه العبودية لا تورث الكافر سعادة في المآل.

ب – في مرتبة الإسلام: تكون العبودية عبودية ظاهر الإنسان.

ج – في مرتبة الإيمان: تكون العبودية عبودية باطن الإنسان.

د – في مرتبة الإحسان: تكون العبودية عبودية تحقق. وهي لكلية الإنسان. وهي أيضاً ما سماه البعض عُبودَة.

٣- العلم:

العلم هو إدراك الأشياء (المعلومات) على ما هي عليه في الحقيقة. وهو صفة إلهية يُفيض منها على من يشاء من عباده بما يشاء: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ النساء:[١١٣].

والأصل في العبد الجهل المحض. لأنه عدم العلم، فهو مناسب لأصله. وإلى هذا المعنى الإشارة بقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:[٢١٦]: الله يعلم لأن العلم صفة وجود، وأنتم لا تعلمون لأنكم عدم على التحقيق. هذا بالأصالة، ولكن لما أراد الله تعالى أن يظهر جوده وفضله على الإنسان عَلَّمه: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق:[٥]. وإلى علم الإنسان، الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء:[٨٥]: أولاً: العلم أوتيه وليس له. ثانياً: مهما بلغ هذا العلم وإن كان الإنسان أعلم بني جنسه فلن يوصف إلا بالقلة. ذلك أننا لو نسبناه إلى العلم الإلهي غير المتناهي، لكانت هذه النسبة نسبة محدود إلى غير محدود. وهي كما يعبر عن ذلك الرياضيون: مقارِبة للصفر، أو غير معتبرة. وهذا بعينه معنى القلة المذكورة في الآية.

إذا علم الإنسان هذا، فإنه لن يغتر بعلمه أبداً. وسوف يكون جهله الأصلي هو المشهود له. وذلك ما يحقق عبوديته ويرسخ قدمه فيها.

مراتب العلم حسب مراتب العقل

إذا كان العقل بمختلف مراتبه وتسمياته هو محل العلم، فلا يخفى ما بينهما من تلازم صعوداً ونزولاً :

المرتبة الأولى (العقل المجرد): العلوم التي يمكن للعقل اكتسابها، هي العلوم المتعلقة بظاهر الحياة الدنيا. سواء كانت تجريبية أم نظرية بحتاً أم مهارية.

المرتبة الثانية (الإسلام): إلى جانب العلوم المتعلقة بالمرتبة الأولى، يمكن للعقل اكتساب ما يسمى بالعلوم السمعية أو النقلية التي يأخذها عن الرسل عليهم الصلاة والسلام.

المرتبة الثالثة (الإيمان): إلى جانب العلوم التي اكتسبها العقل في المرتبتين الأوليين، يكون القلب مؤهلاً إن شاء الله تعالى لقبول علوم وهبية ليس له فيها تعمل. بل له فيها تهيؤ وقبول فقط. وهي ما يسمى علوم الكشف، التي هي نتائج الإيمان العلمية. يجدها أصحابها في قلوبهم واضحة بينة، فتقبلها عقولهم بمنطق هذه المرتبة. لكن العقول التي دونها، تردها غالباً، وتُنكرها على أصحابها أشد الإنكار .

المرتبة الرابعة (الإحسان):إلى جانب كل العلوم السابقة، يختص العقل هنا (الروح) بالعلم اللدني الذي سبق أن تكلمنا عنه بإيجاز .

فظهر مما سبق أن العلم علمان: علم كسبي وعلم وهبي. والعلم الكسبي نوعان:

– دنيوي: وهو العلوم التي لا تتجاوز الدنيا في مراميها، سواء كانت دنيوية بالأصل أم أخروية.

– وأخروي: وهو العلوم الشرعية بأنواعها، بالأصالة؛ والعلوم الدنيوية التي تراد بها الآخرة بالنية والاعتبار.

والعلم الوهبي أيضاً نوعان: كشفي ولدني .

وقد جاء في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:« العلم علمان: علم في القلب، فذاك العلم النافع؛ وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على خلقه »[١٦]، نفهم منه عادة، أن العلم المستقر في القلب المتيقن، أنفع من العلم الذي يتكلم به المرء دون أن يكون له أصل في باطنه. وهذا معنى من معاني الحديث يحمل عليه. أما المعنى الذي نريده نحن هنا فهو:

إن علم اللسان هو العلم الكسبي الذي ينتقل من واحد إلى آخر ويلقن بواسطة اللسان بالدرجة الأولى، أو ما ناب عنه كالكتابة بالدرجة الثانية. وهذه العلوم كما قلنا سابقاً عقلية ونقلية. وهي حجة الله على الخلق. والحجة لا تكون إلا فيما يحتمل النفي والإثبات. وهي بالتالي، إما لهم أو عليهم. فالعلوم العقلية حجة للإنسان، إن هي أوصلته إلى باب الإيمان، وإن استعملها للخير. وهي حجة عليه إن أدت به إلى عكس ذلك.

فانظر ما أعدل الله! كيف لا يأخذ الإنسان إلا بنفسه! ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الإسراء:[١٤].

والعلوم النقلية التي يأخذها الخلق عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، حجة لهم إن هم حكموها في نفوسهم وعملوا بمقتضاها. وهي عليهم إن هم أهملوها وخالفوها واتبعوا أهواءهم دونها.

أما العلم الثاني الذي هو في القلب: فهو العلم الوهبي الذي ينبع من القلب ولا يأتي من الخارج. وهذا الصنف من العلوم جعله صلى الله عليه وآله وسلم نفعاً محضاً لا يقبل احتمال النقيض. وذلك لشرف نسبته وعلو مرتبته عند الله تعالى .

---

[١٦] – قال الحافظ العراقي في تخريجه: أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح، وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعلّه ابن الجوزي.

وترتيب العلوم لا بد أن يتبينه العقل إن كان يريد السلوك إلى الحق، والترقي في معارج الكمال. وإلا فسيكون طُعمة سهلة للشياطين الذين يحترفون التلبيس والإيهام. وما أشد تعرض العقول غير المؤيَّدة من الله إلى ذلك؛ خصوصاً فيما يتعلق بالفكر.

٤ - تحقيق الترقّي

إذا عرفنا مراتب العقل ومنازله، وجب علينا تبيين الشروط التي يتحقق بها الترقي من مرتبة إلى مرتبة، وذلك كما يأتي:

أ - اتخاذ الإسلام ديناً: إن من المغالطات التي بدأت تتسرب إلى الأمة، كون الإسلام ديناً من ضمن عدة أديان، تتشابه في أكثر الوجوه وتختلف بعضها عن بعض في جزئيات منها فحسب. وكأن الإنسان له أن يختار من بينها ما يوافق ميوله ونزعاته، كما يفعل عند اختيار الألبسة أو المأكولات من السوق. فنقول: إن العقل مخلوق لله تعالى، أمْرُه بيده كما هو أمر كل شيء. وترقي العقل إنما يكون بإذن من الله، حتى لا يظن العقل أنه الرب. ويكون هذا الترقي عبر سبيل شرعها الله تعالى وبينها، وبأسباب حددها. يتضح من خلالها كما قلنا فقر العقل الأصلي إلى ربه. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران:[٨٥]. يتبين من هذا أن الإنسان ملزم باتباع الدين الحق حتى يفتح له باب الترقي. وإلا فسيكون كمن يغربل الماء: في تعب دون نتيجة. فإن قيل إن الأديان السماوية هي من عند الله، فهي أيضاً سبيل للترقي. قلنا: ليس للعقل (من حيث ما هو عبد) أن يحدد السبيل. وإنما ذلك لربه، ولربه أن يُحْدِثَ في هذه السبيل ما شاء من التغيير (النسخ والتبديل)، لملكه الأمر وهيمنته عليه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ الأنبياء:[٢٣]. وجدوى دين من الأديان وصحته، ليست للدين ذاتية، بل هي بإذن من الله. فإن رفع الله

إذنه من دين (شريعة) ما، لم يعد ذلك الدين سبيلاً موصلة إلى الله. كل هذا ليعلم العقل أنه ليس له من الأمر شيء، وليفتقر كي يعطى.

فإن قيل: إذن فقد فَقَدَ العقل الإنساني هذا الامتحان الذي هو اختلاف التشريع بثبوت واستمرار الدين الخاتِم؟ قلنا بل هو في أثنائه وطيّه. ذلك أن النسخ وارد على هذا الدين (الشريعة) أيضاً في بعض جزئياته. كما أن لله في النهاية أن يقبل أو أن يرد عمل العبد، لأن الشرع حاكم على العبد لا على الله سبحانه. وهي مسألة تغيب عن أغلب الناس. فإن قال القائل: كان هذا ممكناً مع الشرائع المنسوخة السابقة ولم يكن من داع إلى نسخ بشريعة خاتمة؟ قلنا: ذلك لو كانت الشرائع السابقة كاملة. أما وهي غير ذلك، فلا بد من سير الدين نحو درجة الكمال التي بلغها بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما بيّنّا ذلك فيما سبق.

فلم يبق إذن أمام العقل الإنساني من باب، إلا باب الإسلام المحمدي. وأما الأديان الأخرى سواء كانت سماوية أم وضعية فهي باطلة، على تفاوت بينها. إذ لا يستوي ما وضعه الله مع ما وضعه العبد. وهو ما بينه الكتاب والسُنّة في غير ما موضع .

ب – اتخاذ القدوة (الشيخ): الشيخ رجل خَبَرَ طريق الترقي، وسبق له أن سلكه. فهو يعلم حق العلم مواطنه ومسالكه، ويميز آمنه ومُهلكه.

والشيخ دال على مراتب الترقي بالنيابة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لا بالأصالة. فهو ملزم إلزاماً تاماً باتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، في كل شيء. والشيخ المعتبر هنا، والذي نقصده، هو الشيخ الحي المتواجد في الدار الدنيا إلى جنب السالك. ذلك حتى تتحقق المباشرة والمعاشرة، اللتان تثمران للسالك ما لا يثمره غيرهما، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« المؤمن مرآة أخيه »[١٧]. وفائدة المرآة أنها تبين

[١٧] – أخرجه البخاري في الأدب المفرد بلفظه ولأبي داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

للإنسان من نفسه ما لا يظهر له بدونها. فيعرف نفسه على التفصيل، ويميز من نفسه بين اليمين والشمال، والفوق والتحت. وأكمل مرآة على الإطلاق، مرآة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، باعتباره أول المؤمنين رتبة لا زمناً. لكن وبما أن هذه المرآة غابت عن شهود السالك الحسي، أجاز له الشرع أن يعرض نفسه على مرآة جزئية (الشيخ) أكمل منه يعرف منها ما يساعده على التقدم في السلوك .

فإن قال قائل: يكفيني الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قلنا: بل الاقتداء لا يكون إلا به صلى الله عليه وآله وسلم. لكن لهذه القدوة فرعاً في الشيوخ رحمة من الله بالناس الذين:

- لا يتصلون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يكون هو المفتيَ لهم فيما يعرض لهم في تفاصيل السلوك إفتاء لا عن خبر. لأن الخبر قد ينزَّل على غير وجهه.

- لم يتخلصوا من سلطان نفوسهم وأهوائهم، فيلتبس عليهم التوجيه النبوي الخبري. فيسلكون به غير المسلك الصحيح، فيضلون على علم.

فإذا تبينت مرتبة المشيخة للقارئ، نمر إلى تفصيل مراتبها حسب مراتب الإدراك العقلي التي سبقت:

مراتب المشيخة

أولاً: في مرتبة العقل المجرد، يكون الشيخ من العقلاء النظار، الذين يعرفون مسالك الفكر، ويميزون سليمه من سقيمه.

ثانياً: في مرتبة الإسلام، من مراتب العقل المعضد، يكون الشيخ من علماء الشرع، العالمين بأحكامه، المبينين لها. لا من الذين يتبعون السياسات المخالفة ويمررونها للناس.

ثالثاً: في مرتبة الإيمان، يكون الشيخ من فقهاء القلوب، العالمين بأمراضها وعلاجاتها، المتحققين بما يُطلق عليه تصوف الظاهر (أي ظاهر القلب).

رابعاً: في مرتبة الإحسان، لا بد للشيخ أن يكون ممن تحقق بربه، وصار الله سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله، بمقتضى الحديث القدسي الذي مر ذكره. وهذا ما يطلق عليه: تصوف الباطن.

غير أنه بسبب جهل جل العقول لمراتب العقل على التفصيل، فإنها قد تقر ببعض أنواع المشيخة دون البعض المتبقي. وذلك كتسليم العامة بمرتبة المشيخة في العلوم الشرعية، وإنكارهم لها في مجال التربية القلبية. مع أن سبب إنكارهم لها في الأخيرة، يسقط إقرارهم بها في الأولى لو تفطنوا. وبيان ذلك أنهم يقولون: إن إثبات مرتبة المشيخة التي يقول بها الصوفية، هو إثبات للواسطة بين العبد وربه. وهو قدح في التوحيد عندهم. وردنا عليهم، هو أن إثبات الواسطة في أخذ أحكام الدين عن علماء الشرع، هو أيضاً إثبات للواسطة بين العبد وربه في هذه المرتبة. ذلك أن التشريع والتبيين معاً، هما لله ورسوله. وما قام به علماء الشرع من تبيين، إنما هو بإذن من الله ورسوله لا من أنفسهم. فظهر أن الواسطة إن كانت بالإذن، لم يلزم من الاقتداء بها خلل في التوحيد، كما يزعم ذلك بعض من علموا التوحيد العقلي النظري، وغاب عن عقولهم التوحيد الشرعي؛ كما سنبين ذلك إن شاء الله تعالى خلال الباب الثالث من هذا الكتاب.

ج – الزاد:

لا بد للقلب السالك في طريق الله تعالى التي هي الدين، من زاد يتقوى به بعد الله على مشاق السفر، والانتقال من مرحلة إلى مرحلة، ومن مرتبة إلى مرتبة. وما الزاد الذي يحتاج

إليه، إلا التقوى التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ البقرة:[١٩٧]. ويأتي في المرتبة الأولى منها: أداء الفرائض، ثم بعد ذلك الإكثار من النوافل. ومركز هذه الأعمال ذكر الله تعالى الذي جعله روحاً لها كلها. فقال فيه مثلاً: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ طه:[١٤]. وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا، إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع. (ثلاث مرات) »[18]. وفي هذا الحديث وغيره ما يوحي بأن الذكر روح الأعمال كما قلنا. ولا تستقيم هذه الأعمال إلا به، فهي له كالأواني والظروف. لكن من الذكر ما هو تلاوة على الخصوص، أو ترديد صيغ معينة بكيفية معينة. والمعنيان المذكوران غير متناقضين. ذلك أن الذكر يبدأ عادة بالظاهر، وأَخَصُّ عضو به في الظاهر اللسان. وهو المرتبة الأولى منه. وهي التي تناسب مرتبة الإسلام. ثم ينتقل العبد إلى ذكر القلب: وهو حصول معنى الذكر له. وهي المرتبة الثانية الموازية لمرتبة الإيمان. ثم ينتقل إلى مرتبة ذكر الروح أو السر. وهي المرتبة الثالثة الموازية لمرتبة الإحسان.

٥- خلاصة

لقد مَنّ الله على العقل الإنساني بأن أخذ بيده وأخرجه من ظلمات نفسه إلى نور ربه. ولولا هدايته سبحانه وتعالى ما اهتدى أحد من عباده إليه: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ الأعراف:[٤٣]. فالباب مفتوح لمن شاء أن يحقق درجة إنسانيته، ويرقى عن حيوانيته التي تهوي به أسفل سافلين: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ

[18] – أخرجه الطبراني في الكبير واللفظ له وابن أبي شيبة في مصنفه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وإسناده حسن.

رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الإنسان:[**٢٩ – ٣١**].

الْبَابُ الثَّالِثُ

مثبطات العقل لدى الأمة

الفصل الأول

المثبطات

١ - الحالة العامة

إن أمة الإسلام قد تعرضت لعوامل عديدة، أثرت فيها، وجعلتها تضعف وتقعد عن الأخذ بأسباب قوتها التي بينها الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ومن هذه العوامل:

أ - الفتن: هذه الفتن التي بدأت الأمة تقع تحت وطأتها بُعيد عصر النبوة مباشرة. وصارت تلك الفتن تقوى وتقوى إلى أن بلغت حداً عصف بإيمان كثير من أبناء المسلمين. ونُرجع أصول هذه الفتن إلى:

- ميل القلوب إلى الدنيا. وهو ما يحجبها عن الآخرة، وما يوصل إليها من صالح الأحوال والأعمال.

- ظهور التيارات السياسية الرامية إلى التحكم في المسلمين بحق أو بغير حق.

- تعرض الأمة للاستعمار من قبل الكفار، الذين خلّفوا وراءهم بصمات في وجدانها لا تتماشى مع الأصول الإسلامية، مما أوجد انفصاماً لديها أقعدها عن الحركة، أو على الأقل، قلل من قدرتها عليها كثيراً.

ب - طول العهد بالنبوة: مع مرور السنين، بدأت الأمة تفقد اتصالها بمصادر دينها على الوجه الذي ينبغي أن يكون عليه هذا الاتصال الذي يحفظ لها استمرارية استمدادها من نور النبوة، ويكفل لها مَنَعة ضد تشويش المغرضين. وبدل ذلك، طغى عليها التعامل التاريخي مع

الدين. مما جعل هذا الدين تراثاً تاريخياً، يحافظ عليه المسلمون حفاظاً يوازي أو يكاد، حفاظ كل أمة على مقدساتها الموروثة عن سلفها.

ولم يسلم من هذه الحالة إلا قلة من أبناء الأمة الإسلامية، ظلت على العهود الأولى، ولم تتأثر بمتغيرات الزمان أو المكان، أو العوامل الداخلية أو الخارجية، عناية من الله بها، وإبقاء منه تعالى لهذا الدين على حال طراوته وجدته. وكأن الزمان غير موجود، أو كأن هؤلاء خارج الزمن.

إلى هذه الطائفة يشير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:« لن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »[١٩].

وبسبب انحجاب أغلبية الأمة عن الأخذ من مصدريها الأساسين (الكتاب والسنة) الأخذ الصحيح رغم تداولهما بكيفية لم تكن للأولين؛ ظهرت في الأمة الانحرافات التي أصابت سابقاتها من الأمم، بعد انتقال رسلهم عليهم الصلاة والسلام. ومن ذلك:

– التمسك بظاهر الدين ورسومه دون روحه ولبه، والتعصب لهذا الظاهر إلى حد ظهور الفُرقة في الأمة الواحدة.

– طلب العلوم الدينية لأغراض دنيوية، مما أفقدها مهمتها الأصلية التي هي الدلالة على طريق الحق.

– اتخاذ الدين نفسه مطية إلى الدنيا بعد أن كان وسيلة للتقرب إلى الله والفوز في الآخرة.

– اتخاذ النفوس الضعيفة حملةَ العلم الغافلين سنداً وحجة للانغماس في ملذات الدنيا، وأحياناً للانحراف عن الحق؛ ظناً منهم أن ذلك ينفعهم عند الله يوم الحساب.

---

[١٩] – أخرجه مسلم واللفظ له عن ثوبان رضي الله عنه، وأخرجه البخاري عن معاوية رضي الله عنه بلفظ: « لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك ».

- الإنكار على الطائفة المتمسكة بالحق، حتى تصفو الحال لطالبي الدنيا وأعراضها الزائلة.

٢ - المثبطات

أ - السياسة: لقد أصابت الأمة عدوى السياسة بالمعنى الاصطلاحي الحالي. وهو تصور للحكم يُعمل على تحقيقه وفق استراتيجيا معينة يحددها الإطار المنظم، سواء أكان حزباً ذا خلفية إيديولوجية أم غيره. ونقول إن هذا النوع من السياسة عدوى، لأن السياسة التي تعرفها الأمة في الأصل، هي تدبير الشؤون العامة للمجتمع المسلم وفق ما أنزل الله. لا يُترك فيه للإنسان مجال للاجتهاد، إلا فيما يتعلق بكيفية تحقيق هذه الغاية؛ حسب المتغيرات أو ترتيب الأولويات حسب المستجدات. لكن السياسة الوافدة أو المخلفة من قبل المستعمر، جعلت كثيراً من أبناء الأمة ينساقون وراء إديولوجيات (مذاهب فكرية) ذات أصل كافر غالباً. وهو ما جعل هؤلاء يصطدمون بالدين كثيراً: إما من حيث ما هو عقيدة وإما من حيث ما هو تشريع. أدى بهم أحياناً هذا الاصطدام إلى الانتصار للمذهب الفكري على حساب الدين، الذي يجهلونه وينظرون إليه من خلال نظّارات أئمة المذهب الذي يتبعونه، بدون أي إنصاف علمي، يجعلهم على الأقل يتبينون ما يخوضون فيه.

وبعد انهيار قلعة الشيوعية في العالم، وتطبيل وتزمير الغرب لنموذجه الديموقراطي ذي الأصل الإغريقي، مال المتسيسون من أبناء الأمة حيث تميل الرياح. حتى أنهم صاروا يبحثون للإسلام عن نقط التقاء مع الديموقراطيا، كي ينافَح عنها ويدافَع باسم الشرع. هذا الشرع الذي كان يجب أن يكون عندهم أعلى، وكان يجب أن يُسعى إليه بدل أن يسعى به إلى غيره.

والديموقراطيا التي تعني حكم الشعب، تتنافى مع الإسلام في أصل وضعها. ذلك أنه في الإسلام لا حكم إلا لله: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ الأنعام:[**٥٧**](بجميع معاني الحكم). فمن احتكم إلى الشعب، فقد جعل الشعب إلهاً اعتبارياً، يشرع ويسن، يثيب ويعاقب.

يونان معذورون إن هم بحثوا لأنفسهم عن نظام، تستقيم به أحوالهم، على قدر ما تيسر لهم. لكنْ، مسلمون وديموقراطيون، فهذا ما يحتاج إلى نظر!

عيوب الديموقراطية

أولاً: الاحتكام إلى غير الله (غير الكتاب والسنة) كما أسلفنا.

ثانياً: الحكم بحسب الأغلبية. فإن كان أغلب الناس فاسدين مفسدين، أخرجوا لنا من بينهم ممن هو على شاكلتهم، من يحكم أمة الإسلام. وما ينتجه هذا النوع من الحكم، هو نفس ما ينتجه حكم ذئاب لقطيع من الخراف.

ثالثاً: اكتساب المنتخبين من قبل الأغلبية شرعية ما، تمنحهم حصانة، توفر لهم الظروف المناسبة للاستجابة لنزواتهم وانحرافاتهم. أحياناً على مرأى ومسمع من الناس، مما يزيد الأمة فساداً على فساد.

رابعاً: توفير فرص التكافؤ لجميع الأصناف (نظرياً على الأقل)، حسب المبدإ الديموقراطي. وهو ما يعطي الشر حق التواجد إلى جانب الخير، إن لم يكن أحياناً كثيرة على حسابه. ونعني بالشر كل ما من شأنه الإضرار بالإنسان دنيا أو أخرى.

خامساً: انقسام الأمة إلى أحزاب متناحرة متصارعة، وهو ما يضعفها ويخالف أصل الوحدة الذي أسسه لها دينها. ولا يُغوينك ما تسمعه عن التعددية التي نفهم منها نحن الاختلاف، فإنها غير ما نحن بصدده. ولعلنا نتطرق إليها في أحد كتبنا، إن قدّر الله ذلك.

وانظر كيف أنه رغم هذه العيوب البينة، صار كثير من الناس يدعون لهذا المذهب. ومنهم علماء للشرع، كان الأجدر بهم التحذير من مغبة الوقوع فيه. أم أننا لن نتراجع عن ذلك كما هي عادتنا حتى يتراجع غيرنا، بعد أن يستنفدوا أغراض هذا المذهب التي وضع لها، ويجدوا مذهباً بديلاً يدعوننا إليه مرة أخرى، وينبري للدعوة إليه منا زعماء لنا جدد، وفق شرع جديد؟!

إنه لأمر محزن وشائن، لأمة هي خير أمة أخرجت للناس!

وإن تناولنا للديموقراطية من حيث ما هي مذهب فكري سياسي، إنما هو من قبيل مقارعة الفكر بالفكر حسب ما يقتضيه موضوع الكتاب، لا من منظور سياسي مخالف من طرفنا.

وغير خفي، أن أناساً ألزموا أنفسهم التقيد بهذا المذهب عقيدة وعملاً لن يتمكنوا من الترقي في المراقي الإيمانية، التي هدى الله العقل الإنساني إليها، بسبب مجانبتهم الحق. وبالتالي، سيبقون في دركات العقل المجرد، إن هم لم ينزلقوا إلى مرتبة العقل البهيمي. فما أشده من حرمان!

الجماعات الإسلامية

كثير من الجماعات الإسلامية، ووعياً منها بما أسلفنا، نذروا أنفسهم للتصدي للانحرافات السياسية التي طرأت على الأمة؛ جاعلين من هذا التصدي محور عملهم، إن لم نقل غاية وجودهم. مما حصر الإسلام من منظورهم، غالباً في مذهب سياسي مقابل (إيديولوجيا إسلامية)، جاعلين من الوصول إلى الحكم غاية أولى. وهو ما جعل كثيراً من النفوس التي لم تتطهر بماء الشرع على الترتيب الذي ذكرناه في الباب السابق، تنساق وراء

أغراضها باسم الدين. وهو أيضاً ما حجبها بدوره عن تحقيق ترقيها هي نفسها في مراتب الدين. فكانت نتيجتها نتيجة من سبقها، وإن اختلف طريقاهما.

ولا بأس هنا أن نبين، أن الحكم وتنظيم الدولة في الإسلام، إنما جعل للحفاظ على الدين؛ أي على فرصة الترقي للعقول البشرية، ميسرة دانية؛ ولم يُجعل الدين عاملاً مؤسساً لحكم هو الغاية، كما يعتقد ذلك بعض الناس.

الإنسان هو محور الوجود، وهو المخاطَب للدين. فكيف يُجعل مجرد أداة أو وسيلة لتحقيق غايات هي أدنى رتبة منه على كل حال من منظور الترتيب العقلي. هذا لا يُقبل من أي مذهب وضعي، فكيف بمن يعمل باسم الدين؟!

وإننا هنا إذ ندعو إلى مراجعة الجماعات الإسلامية مواقفها، نؤكد على أن من هذه الجماعات من حفظه الله مما ذكرنا. فلا سبيل إلى التعميم إن كنا نريد الإنصاف.

ب - الاقتصاد

لا تخفى تبعية أمتنا الإسلامية في اقتصادياتها لغيرها من الأمم. ونحن هنا، لسنا بصدد البحث في الأسباب التي أدت إلى هذه الحال، لأنه لا يدخل ضمن غرض هذا الكتاب؛ ولكن نريد أن ننبه إلى أن الاقتصاد، أو الظروف المادية على عمومها، من توابع الإنسان وليس العكس. وإننا نرى اليوم كيف يُسخر الإنسان الذي كرمه الله تعالى، من أجل بلوغ غاية اقتصادية، يقال إنها من أجله تراد. لكن، ماذا يبقى من ذاك الإنسان، من إنسانيته، عندما يأتي الفتح الاقتصادي؟

إن سلفنا عندما قاموا بهذا الدين، لم يقصدوا من ورائه، في المرتبة الأولى، القضاء على الطبقة البورجوازية القرشية، أو الاستعباد القرشي. ولم يروموا اقتسام الثروات بين سادة مكة

وعبيدها. ولم يطمحوا إلى تحسين وضعيتهم التي يحكمها غالباً فقر واسترقاق. بل قاموا بهذا الدين، ليحققوا في أنفسهم معنى التوحيد الذي جاء به، ويرقَوْا باتِّباعه إلى درجات الإنسانية التي كانت محجوبة عنهم بمقتضى الجاهلية. أرادوا أولاً أن يعيدوا للإنسان إنسانيته!

ولما كثر المسلمون وقامت للإسلام دولة، صار إذ ذاك لهذه الدولة نظام اقتصادي، يحفظ تلك الكرامة الإنسانية المحققة من أن تهدر، أو تعاد إلى سابق عهد الجاهلية، تحت حكم مسمى أي اسم من الأسماء.

هذا هو الاقتصاد الاسلامي. اقتصاد للإنسان، لا اقتصاد بالإنسان فحسب!

وإن الأمم المعادية للإسلام، تحاول أن تغرس في نفوس أبناء أمتنا ذاك المفهوم الخاطئ للاقتصاد، بوسائل شتى، قانونية وعملية، لتضمن لنفسها تبعية الأمة لها. تلك التبعية التي تضمن بدورها ضعف الأمة، الذي تأمن هذه الأمم على نفسها معه. تأمن، لأنها تمثل بعدائها للإسلام الدين الحق، عصبة الشر والظلام، التي لا حياة لها مع الخير والنور.

والمسلم الذي يُفترض فيه أنه طالب آخرة، لا تشده مثل هذه الحبال الواهية إلى الخلف. ولا تحوله عن قبلته الحقيقية ولا عن تحقيق ترقيه في مراتب دينه، الذي هو سبب عزته وكرامته دنياً وأخرى.

ولِتتأكد مما قلناه، انظر إلى تلك الأمم التي تدعي أن لها الإمامة الاقتصادية اليوم، وانظر إلى حال الإنسان فيها وإلى قيمته، رغم الادعاءات الكاذبة بتحقيق حقوقه. وكيف أن ذلك الإنسان ما بقي له من إنسانيته غالباً إلا صورته الظاهرة، التي تعلق بها أنواع متعددة من الأمراض النفسية والخُلقية والجسدية، الجديدة منها مضافة إلى الموروثة.

ج – التعليم

إن التعليم الذي ورثته الأمة عن المستعمر، كان أهم إنجازات ذلك المستعمر، ضمن خططه الاستعمارية متعددة الجبهات. ذلك أن هذا التعليم لن ينقل المعلومات التي يريدها أن تنقل إلى الأمة فحسب، ولكن سيعمل من خلاله على تمرير مناهج تفكيره ونظرته إلى الأمور إليها. حينئذ سيكفى مؤنة التعب في التخطيط والتنفيذ، لأن المتعلمين من أبناء الأمة على منهجه، سيعملون بدله لتحقيق أغراضه. علموا ذلك أم لم يعلموا.

ومما ركز التعليم المستورد على تحقيقه ما يلي:

أولاً: تهميش التعليم الديني، وهو أخطر من حذفه. إذ لو حذف لتيقظت غريزة الأمة الدفاعية وهو لا يريدها أن تتيقظ فأدى ذلك التهميش إلى نبذ بعض أبناء الأمة دينهم من تلقاء أنفسهم.

ثانياً: ترسيخ النظرة المادية الدنيوية لدى الأمة من خلال المواد التي تساعد على ذلك، وإن كانت هذه المواد والعلوم خيراً في نفسها. لكن المقصود من ورائها هو قطع علاقة الأمة بالغيب، الذي سيبدو لها مناقضاً للواقع ولِما يقتضيه العقل السليم بالمنطق المادي.

ثالثاً: فتح العقل المسلم لكل أنواع الفكر والديانات العالمية بدعوى الانفتاح والموضوعية والتحليل العلمي وحق المقارنة. وهو يريد بذلك تشكيك الأمة في دينها وفي حَقِّيَّتِه. فصار بعض من انفعل لهذا التعليم يصنف الإسلام واحداً من ضمن مجموعة أديان عالمية، تكون تراث شعوب معينة، وثقافات مختلفة. فغاب عنهم بذلك المدخل الإيماني الذي هو وحده يستطيع استنقاذهم من مثل هذه العبثية الفكرية.

رابعاً: ترسيخ ما يسمى بالعقلانية، بل تقديس العقل (بمفهومهم) ودور الفكر، الذي يجب أن يخضع له كل شيء، بما في ذلك الوحي. وهو أخطر ما توصل إلى تحقيقه المستعمر.

فصار كل واحد يعطي لنفسه حق تحليل وتقييم كل شيء، بغض النظر عن كمال عقله أو نقصه، أو عن صحة فكره أو سقمه، صفاء ذهنه أو انطماسه. وهو ما أدى إلى ظهور مذاهب فكرية تدعو أحياناً إلى السخرية أكثر مما تمثل فكراً بالمعنى المعروف.

خامساً: نزع الحياء والأدب من النفوس: بحيث لا يعود تلميذ يحترم معلماً، ولا جاهل عالماً. فتجد قوماً يعارضون عالماً أو إماماً باستنادهم إلى قلة الحياء والمروءة فقط. الشيء الذي أدى إلى فوضى لا يعرف لها أول من آخر. كما أدى إلى إحجام بعض من أوتوا العلم عن الخوض في علومهم مخافة إفساد السفهاء عليهم ذلك.

وكان من نتائج هذا النوع من التعليم: تخريج متعلمين برزوا في ميادينهم الدنيوية، وصار منهم من يحكم الأمة في مجاله كالوزراء وغيرهم؛ لكنهم خواء أو يكادون من الإيمان، ومن الأخلاق التي هي زينة الإنسان. لا يحسون بالانتماء الكامل إلى الأمة الإسلامية بقدر ما يحسون بالتبعية للمستعمر في كل شيء: في تفكيرهم، وفي سلوكهم، وفي طريقة عيشهم، وفي كلامهم، و ... هؤلاء صاروا و إن لم يعلموا نواباً ووكلاء لمستعمر الأمس على أمتهم اليوم. فكيف سيرتقي مثل هؤلاء في مراتب الدين؟ أم كيف سيتركون من يريد ذلك يفعل؟

د – تقصير علماء الدين وقصورهم

أمام هذه المحن التي كادت تأتي على الأمة، وقف علماء الشرع، وقفة شبه محايدة، إلا قليلاً منهم. وقفوا يحللون ويصنفون. وأحياناً يعارضون بأدب وحياء مناسبَيْن لما يجب أن يكون عليه أهل الدين بمنظور الغير. والأمة تأخذ عنهم إلا قليلاً منهم ديناً شبه ميت، محصوراً في عبادات تُكُلِّف في تعليمها واستقصاء جزئياتها. وهي تظن (أي الأمة) أن هؤلاء لا يخفى عنهم شيء في الأرض ولا في السماء. وهم (أي العلماء) قانعون بهذا المقام الذي

يحتلونه، وهذا الجاه الذي قد يفوق أحياناً جاه السلاطين؛ والذي يستعمله في بعض الأوقات أعداء الأمة بترسيخه والحفاظ عليه، كي يبقى من مثبطاتها، كابحاً لمطامحها في ترقيها وتنمية مداركها.

ولا بد هنا، مع احترامنا لهذه الطائفة من الناس كي لا نُنْسب إلى القذف المجاني والكلام على غير هدى أن نبين مرتبة العالِم من غيره:

فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:« رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[٢٠] . يفيد هذا الحديث أن من الناس من هو حامل علم لا عالم. وحمل العلم هو ما يحصله المرء بالتعلم والاكتساب والحفظ. حتى إذا سئل عما تعلم، ذكره على الوجه الذي تعلمه. أما العالم فهو كما قال الإمام مالك رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده. فالعلم إذن، مَلَكة يعطيها الله لمن يشاء. بها يعرف حقائق الأشياء، وبها يميز الكلام ويستخرج مخبوءه. لكن عامة المسلمين لا يميزون بين هؤلاء وأولئك، فوقعوا ضحية لحملة العلم المتعطشين للجاه والدنيا. فانحرفوا بهم عن جادة السبيل، وقعدوا بهم عن الترقي في مراتب الدين. بل شددوا أحياناً عليهم في إنكارها، وعدّوا الخوض فيها من قبيل الشرك تارة، أومن قبيل الفلسفات الدخيلة تارة أخرى. فحَرَمَ هؤلاء الحملة للعلم نفوسهم، وحرموا غيرهم بموقفهم هذا.

أما العلماء بحق، فلم يدخروا جهداً في توضيح المسالك والتحذير من المهالك. ولنا في كل عصر منهم فئة هيأها الله تعالى لذلك. فالحمد لله على ذلك.

---

[٢٠] - أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد في مسنده واللفظ له عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما وإسناده صحيح.

هـ - المذهب الوهابي أو السلفي

المذهب الوهابي، الذي أسسه ابن عبد الوهاب، هو مذهب عقدي لا فقهي. قام في أساسه على محاربة مظاهر الشرك والبدعة عند الأمة. لكن ما وقع فيه، كان أدهى من ذلك بكثير. قد نسلم بدءاً بمنطلقه، خصوصاً إذا علمنا ما يتسلل إلى نفوس العامة من الشرك، وما يكسو أعمالهم من البدعة. لكن أن يصل الأمر إلى اعتبار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ساعيَ بريد، جاءنا بالقرآن وذهب (ساعي البريد: الطارش بلهجة بلد ابن عبد الوهاب)، وما علينا نحن بعد ذلك إلا العمل بهذا القرآن بعيداً عن كل صلة وجدانية به صلى الله عليه وآله وسلم، مبنية على التعظيم والتوقير والمحبة؛ فهي الضربة القاضية. وهي بمثابة قطعٍ للحبل السُّرِّي الذي يربط الأمة بنبيها الذي يعلمها ويزكيها، أوَّلَها وآخرَها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الجمعة:[٢ – ٣]. لكن هؤلاء، لما لم يجدوا تعليمه صلى الله عليه وآله وسلم ذوقاً، ولم يتزكوا على يديه الشريفتين، ظنوا أن ذلك من قبيل المحال، وعدوا من تكلم به من المجانين والمشركين، رغم صريح الكتاب والسنة. فسدوا بذلك على طائفة من الأمة الباب، وتركوهم خلف الحجاب، لا يستطيعون الترقي في مدارج الإيمان. ونحن نقول لهم:

أولاً: إن كان ما تنطلقون منه توحيداً، فاعلموا أن كلمة التوحيد لم يرد بها كتاب ولا سنة. وإن ذكرت في أحاديث معدودة فلأن المعنِيّين كانوا من النصارى القائلين بالتثليث، أو المشركين من قريش. وهذا ما ينقض عليكم مذهبكم بادعائكم التزامكم السنة. فلوا التزمتم بها ما ابتدعتم اصطلاحاً في العقيدة لم ترد به. ولو كان التوحيد كما تفهمون، لكان ينبغي أن يكون أبرز عنصر فيها بالتصريح؛ إلا إن كان عندكم المسلمون في مقام أهل الكتاب

والمشركين. فإن قلتم هو معنى مفهوم عبرنا عنه، قلنا: إن هذا بعينه ما تنكرونه على غيركم. فإما أن تسلموا به لغيركم، وإما أن تعودوا عنه أنتم أيضاً.

وليعلم القارئ أن التوحيد المقصود هو مشتق من اسم الله الواحد، لكن فيه تعملاً للعبد يفهم من هذه الصيغة: وهو جعل ما لم يكن واحداً (كثيراً) واحداً. وفيه سوء أدب مع الله تعالى عند العلماء المحققين. فإن الله ما قال وحدوني! ولا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وحدوا الله! بل جاء في القرآن: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ محمد: [١٩] و﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ الأنبياء:[٢٥] وأمثالها. وجاء في السنة: « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »[٢١] وأمثاله. والتوحيد الذي ذهبت إليه الوهابية، توحيد عقلي نظري لا شرعي. وذلك بسبب إعمالهم الفكر في غير مجاله. وهو كما أسلفنا من آفات المرتبة الأولى من الدين التي هي مرتبة الإسلام. أدى بهم هذا الفكر (وهو البدعة حقاً) إلى سوء أدب مع الله ورسوله كبير، نرجو الله السلامة.

وجدير بالذكر، أن للتوحيد مراتب مختلفة تتناسب ومراتب الدين التي ذكرناها مراراً: فلمرتبة الإسلام توحيد خاص بها، ولمرتبة الإيمان توحيد يغيب عن سابقتها، ولمرتبة الإحسان توحيد خالص من الشوائب التي تعرض لسابقتيها. وهذا أمر لا يُعرف إلا ذوقاً ممن يسر الله له سلوك طريقه.

ثانياً: إن مذهب السلف الذي تدعون، لا يستقيم. لأن السلف ليسوا مصدراً للدين، وإن كانوا مرجعاً في بعض أجزائه. وهم على الحقيقة مظهر من مظاهر التفاعل مع الدين (التدين) وتحقيق ثمراته. ولكل زمان مظهر لهذا التفاعل لمن حقق النظر. فإن سلمنا لكم ادعاء مذهب السلف، وجب التسليم لآخر بادعائه مذهب الخلف. وهو ما لا تقبلونه أنتم

[٢١] – أخرجه أبو داود في سننه واللفظ له وأحمد في مسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وإسناده حسن.

ولا يقبله غيركم. فوجب الرجوع إلى مصدرية الدين من حيث ما هو دين لا من حيث ما هو متدينون. وهذا هو الأمر الذي كانت عليه الأمة إبان وحدتها وقبل أن تطرأ الآفات التي أشرنا إليها سابقاً.

و – ما علق بالتصوف من الانحرافات

إن التصوف – على اختلاف في الاسم – هو تحقيق الدين بمراتبه الثلاث. وهو ما لا يختلف فيه عاقلان. وقد قام الصوفية الأخيار على مر العصور بجهد ملحوظ في تجديد إيمان الأمة وتوحيد صفوفها، بما لا ينكره منصف. لكن، وككل المذاهب، فقد انتسب إلى التصوف أناس متشبهون بالصوفية من حيث الظاهر، مجانبون لهم من حيث الباطن. فاستغلوا مجال القول بالكرامات والعلوم الوهبية، التي هي حق في نفسها، واتخذوها مطية لاستغفال السذج من الناس ونهب أموالهم، إلى جانب ترسيخ عقائدهم الفاسدة بينهم.

هذا بالإضافة إلى ما يقع لبعض المريدين من خروج عن صريح العلم والإيمان، في حكاية بعض أقوال أكابر الصوفية دون تحقق. بل بأخذ تلك الأقوال على ظاهرها بما يعطيه فكرهم. خصوصاً إن كان شيوخهم الذين سيُقَوِّمونهم قد غادروا الدنيا (وهو ما يسمى تصوف التبرك) فتظهر إذ ذاك الانحرافات بأنواع عديدة، وتطغى العصبية الجهلاء. وهذا يخالف طريق التصوف التي هي أصلاً لتحقيق الترقي. فنتج أنْ تخلف هؤلاء عن الترقي، وانحرفوا عن السبيل التي سلكها من ينتسبون إليهم. وذهب المضمون وبقي الشكل كما يحدث غالباً.

هذا النوع من التصوف (تصوف المتصوفة لا الصوفية) جلب على أهل الله المحققين إنكار الأمة إلا قلة. هذا الإنكار الذي رسخه عدم التمحيص وعدم العلم بحقيقة الأمر.

وهو ما كان من شأنه أن يشكل مانعاً لأغلب المسلمين عن سلوك سبيل الله والوصول إلى العلم بالله، الذي هو اختصاص الصوفية، مع من شاء الله له ذلك من عباده المصطفَيْن.

الحلول والاتحاد

يكاد " المثقفون " والدارسون يُجمِعون على أن الصوفية قوم يقولون بالاتحاد والحلول. وهو ما أدى بهم إلى تكفير بعض كبار الصوفية، بسبب حمل كلامهم على المعنى المذكور.

والحقيقة أن الصوفية، كلهم، وحتى أصحاب الشطحات منهم، ما قالوا بحلول ولا اتحاد أبداً. ذلك أن الحلول يقتضي حالّاً ومحلولاً فيه. والاتحاد يقتضي متحداً ومتحداً به. وكلاهما شرك واضح. وهم (أي الصوفية) من أخص خواص الموحدين. وهذا الشرك لا يليق بمقامهم الرفيع.

غير أن الناظرين في كلامهم، بعقولهم التي لم تتجاوز المرتبة الأولى من الدين غالباً، لم يفهموا مقصدهم بسبب خفائه عنهم. وحملوا كلامهم على ما اعتادوه هم من خلال منطوقهم ومفهومهم. فحكموا عليهم ظلماً بفهومهم. ولو أنهم أعْطَوْا تفاضل المراتب حقه، ما تجرأوا على ذلك ولا تكلفوه؛ ولأحسنوا الظن بهم بسبب ما عُرِف عنهم مِن تمسكٍ بالدين ومن شدة حب لله، تكاد لا توجد إلا عندهم.

وإلى علم الصوفية، الذي يخفى عن غيرهم، يشير أبو هريرة رضي الله عنه بقوله: « حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم »[٢٢]؛ فهل تراه حكم بقطع بلعومه رضي الله عنه من قِبَل سامعيه، إلا لحملهم لفظه الذي لو تلفظ به، على غير مراده؟ أي على غير الحق؟

---

[٢٢] – أخرجه البخاري في صحيحه.

فما أحوج الصوفية إلى إنصاف!

ومن الناس أيضاً من جعل التصوف فلسفة. وما ذلك إلا بسبب غموض معانيه عليهم، أو بسبب استعمال بعض الصوفية بعض المصطلحات الفلسفية. أو بسبب عرضهم لبعض النظريات الفلسفية، وتعرضهم لها بالتحليل والتقييم. فظنوا أن التصوف من نفس جنسها. والحقيقة أن علم التصوف حاوٍ لجميع أنواع العلوم مهيمن عليها؛ لكنه ليس فلسفة، لأن الفلسفة من علوم النظر والفكر، وهو من علوم الوهب.

وإن جامعاتنا بحاجة إلى مراجعة لتصنيف التصوف لديها وتعريفه، ضمن ما تقدمه من مقررات على ضوء ما يمليه المنهج العلمي الحق.

٣ - ترتيب الأمة

إذا عدنا إلى المثبطات المذكورة آنفاً، وإلى جانب كونها عائقاً أمام الأمة للارتقاء في الدين على الوجه المشروع، وجدناها تشكل عاملاً كبيراً من عوامل التفرقة الذي يمزق الأمة.

فالمستغرب يسخر من الفقيه، والفقيه لا يبالي بالمستغرب ويعتبره كالنافلة. والسلفي يجعل الصوفي مشركاً، عليه أن يجدد إسلامه؛ والمتصوف (لا الصوفي) يجعل السلفي منافقاً، لا هو مسلم كالمسلمين، ولا كافر كالكافرين. والمشفقون من حال الأمة يحزنون لما يرونه من تصارع الإخوة وتنازعهم مع اشتراكهم في الدين الواحد. ويتمنون لو أن كل واحد سلّم لأخيه جانبه الذي يحسنه ويتقنه. ولو أن كل واحد استعان بأخيه من أجل اكتمال شمولية الإسلام بهم في مظهر معاصر، أحوج ما تكون الأمة إليه اليوم.

فليت المثقف العصري يتعاون مع الفقيه من أجل التوصل إلى التوفيق بين الأصول والمستجدات. وليت السلفي يتعاون مع الصوفي على إقامة الدين ظاهراً وباطناً.

وبما أن الأمة جسد (بالتشبيه النبوي) فلا بد لهذا الجسد إن هو أراد أن يتمكن من القيام بوظائفه الحيوية أن يكون له ترتيب معين، يحفظ له نظامه وتناسقه. فلا الرأس ينزل عن علوه، ولا الرجل تصعد عن سفلها، ولا اليمين يحيد عن يمينه ولا الشمال يصير يميناً.

وباعتبار مراتب الدين التي مرت، لا بد للأمة من الحفاظ على الترتيب المنطقي التالي:

المرتبة الأولى: أو الإمامة، ونعني بها إمامة التربية والتوجيه، لا إمامة الحكم. وهي للمحسنين الذين تحققوا بمقام الإحسان، والذين قال الله على لسانهم: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الفرقان: [٧٤].

المرتبة الثانية: مرتبة المتحققين بمقامات الإيمان، وهم عمدة المعاملة مع الله على قدم الصدق وبذل المجهود.

المرتبة الثالثة: علماء الشرع الذين لم يتحققوا بإحدى المرتبتين السابقتين، وإلا فهم منها. ثم بعد ذلك يأتي عموم المسلمين.

فإن وفقت الأمة، على اختلاف مراتبها، إلى احترام الترتيب المنطقي لها، فلا شك سيصلُح أمرها، ويتحقق لها ما تحقق للسلف الصالح الذين كانوا على هذا المنهاج عاملين، ولحدود المراتب حافظين.

الفصل الثاني

العولمة

١ - العولمة

إن الذين يسلكون سبيل التلبيس على الأمة، اتخذوا من تطور أجهزة الإعلام والتواصل ذريعة لإقناعها بأن تذوب في محيطها العالمي. وما ذلك في الحقيقة إلا بتخليها عن دينها، هذا الدين الذي ما فتئوا يقنعونها بمماثلته لباقي الأديان. وبما أن كل شعب أو أمة، يفترض أنها ستتنازل عن دينها إما كلياً وإما جزئياً، فما عليها إلا أن تفعل مثلهم حسب ما تمليه " الديموقراطية " العالمية. ولن تخسر بذلك شيئاً كبيراً، بل ستربح الانسجام الذي ستحققه مع العالم المعاصر، عالم الكفر والإلحاد على التحقيق، عالم البهيمية والانحطاط ...

إن كانت العولمة قَدَر العالم، فأمتنا أحق بإعلانها والإمامة فيها؛ لأنها صاحبة شريعة عالمية خاتمة لجميع الشرائع، ذات دين صالح لكل زمان ومكان؛ قابل للتطور (التجدد) مع مستجدات كل عصر بما يناسبه، دون الخروج عن الأصول الحاكمة لهذا التطور، كما لا تخرج تلك المستجدات من جهتها عن أصول أمهاتها في العصور الخالية.

لأمتنا أبواب الترقي إلى مراتب الكمال مُشْرَعة من دون سواها، بالحجة وبالبرهان! إن كانت البشرية تريد تحقيق إنسانيتها والفوز في داريها.

مَن الأجدر بقيادة العالم: الأعمى أم البصير؟ الأعمى الذي لا يعرف ربه ولا يعرف نفسه؟ أم البصير الذي يعرف ربه ويعرف نفسه؟

تحدثوا عن عولمة اقتصاد ...

ثم عن نظام عالمي جديد ...

ثم عن " التسامح الديني " ...

و ....

وهم لا يريدون إلا تحويل الأمة الإسلامية عن دينها. إذ لا يُقصد من أجل السرقة والنهب إلا الغني. وما من غنيّ في العالم غنى الأمة الإسلامية لو عَلِمَتْ!

لن تخسر مع العولمة – كما يريدونها – أمة من الأمم كما تخسر الأمة الإسلامية؛ لأنها ستستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. أما غيرها فربما سيخسرون مادياً إن هم خسروا. لكنهم لن يخرجوا من ظلمة إلا إلى مثلها، ولا من فساد إلا إلى نظيره.

٢ – السلام

من أهداف العولمة المزعومة، تحقيق السلام. السلام العالمي الشامل. ما بقي إلا أن يقال بخلود العالم وجعله جنة أبدية!

إن كلاماً كهذا، لا يصدقه الأطفال، فكيف بعقلاء الرجال!

إن السلام في العالم لن يكون إذا كان، إلا على حساب الأمة الإسلامية: فالظلمة لن تصالح النور إلا إذا انطفأ لأنه ماحيها ومُفْقِدُها عينَها: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة:[١٢٠]. فالسلام الذي يريدونه واضح: هو استسلام وإقرار بالتبعية

على الدوام. فإن لم نقبل، قيل لنا: أنتم دعاة حرب وإرهابيون. وكأنهم ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وهم الذين لا يتورعون عن ارتكاب جرائم قد تخجل بعض الشياطين من التفكير فيها!

نعم، دعاة حرب، على الجهل والظُّلْمة، لإقامة السلام الحق الذي يضمن للإنسان إنسانيته، كيفما كان جنسه أو دينه أو عرقه (تحت حكم الله). ثم إن السلام الذي يدعون إليه، مخالف للحقيقة التي أنشأ الله تعالى عليها الدنيا، وهي التقابل والتضاد، اللذان يدعوان إلى الصراع الدائم ما دامت هذه الدار. حتى إذا جاء يوم الآخرة ووقع الفصل بين المتنازعين، ودخل كل فريق داره ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ الشورى:[٧]، حينئذ يكون السلام لأهل السلام في دار السلام. أما سلام جاهل، من وضع وهم جاهل، يدعو إليه جهال، فباطل لا أساس له من العقل، لمن كان له عقل أو ابتغى إلى العقل سبيلاً.

٣ – حقوق الإنسان

لن نعرض لحقوق الإنسان كما أقرها الميثاق الدولي بنداً بنداً. فنحن لا نرى لها القيمة التي تستأهل ذلك. لكن بدل ذلك، نشير إلى أول حق من حقوق الإنسان على الحقيقة، وهو السماح له بتحقيق إنسانيته، والذي لا نكاد نجد من يرفع شعاره.

ومن حق الإنسان على أخيه، ومن واجبه على نفسه، أن يسعى إلى الترقي من دركات البهيمية والمادية إلى درجات الإنسانية، حسب ما بيناه خلال هذا الكتاب. ذلك الترقي الذي لن يتمكن له بدون إسلام. ذلك الإسلام الذي هو بحاجة إلى عرض في عصر العولمة على جميع أفراد الإنسانية بالصورة الصافية الأصلية. بعيداً عن المزايدات والديماغوجيات

المغرضة. وبعيداً عن التشويهات التي تُلصق به ظلماً من قبل أعدائه، أو تُلحق به جهلاً من قبل بعض المسلمين أنفسهم.

من حقوق الإنسان، تعريفه عبوديته لله، وتمكينه من إقامتها على الأسس التي شرعها الله. ومن حقوقه أيضاً تحريره عن غير الله، بما في ذلك نفسه، التي تدعوه إلى العاجلة وإلى الحضيض.

من حقوق الإنسان أيضاً عدم تقييد العقل الإنساني بأنواع القيود التي رأينا منها بعضها سابقاً؛ وعدم الحيلولة دونه والخلوص من سجنه الفكري الموجَّه، إلى آفاق العقل المعضَّد، حتى يعلم ما لم يكن يعلم.

ومن حقوق الإنسان تمكينه من استعمال علمه بما يتطلبه، للوصول إلى ثمرات الأخلاق والأذواق التي تسعده دنيا وأخرى.

هذا إن كان المراد من "حقوق الإنسان " إعطاء الإنسان حقه حقاً، وهو ما يحتاج إلى نظر!....

خاتمـــة

لا بد للعقل كي يتبين سبيله، أن يعلم الحكمة من وجوده. وقد بين الله تعالى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات:[٥٦]. فالعقل خُلق ليعبد الله، لا يستثنى من ذلك عقل من العقول على الإطلاق. فمنها ما يعبد طواعية، وهم المسلمون له سبحانه. وهؤلاء لهم السعادة. ومنها ما يعبده كرهاً، وهي العقول الجاحدة، الكافرة والمشركة. ولها الشقاء. وانظر قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ الرعد:[١٥] والسجود قمة العبادة. فإن خرج المعاندون عن أمر الله، فهم غير خارجين عن إرادته سبحانه. فهم على كونهم عبيداً، ما حَرَموا بإبايتهم إلا أنفسهم من السعادة الأبدية، والعياذ بالله.

ومن بين العقول المسلمة لله، اصطفى الله عقولاً لم تعقل سواه. وهي أعلى مرتبة للعقلاء. وهم الأنبياء ومن على قدمهم. فلا أعقل من هذا الصنف عند بني آدم. ومن أراد أن يسلك بعقله سبل الكمال، فلا محيد له عن الاقتداء بهم، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ الأنعام: [٩٠]. فإذا علمنا هذا، علمنا أن لا أشرف من العقل عند الله، وهو الذي جعله محلاً لمعرفته سبحانه. وهذا المعنى هو الذي نبه إليه ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ بـ: إلا ليعرفون. فمعرفة الله على الحقيقة هي أكبر درجات العبودية. إذ كيف يُعبد من لا يُعرف؟!

وبما أن جميع العقول له عابدة، ظهر أن جميع العقول له عارفة، إلا أنها على تفاوت كبير في مراتب هذه المعرفة. كما أن من العقول من يعرف ويعلم أنه يعرف، ومنها من يعرف ولا يعلم أنه يعرف. فتبين من هذا أن الحجاب جهل، والجهل عدم.

فسبحان من اختص بعلمه أولي الألباب، واحتجب عن غيرهم بغير حجاب!

وإن التربية أو التزكية، الهادفة إلى إيصال العقل إلى درجات معرفة الله تعالى، إنما في الحقيقة تعمل على تخليصه من العوائق والعلائق التي تحول دونه والانطلاق إلى غايته.

ومن العوائق ما هو معلوم للعموم، كحب الدنيا والمعاصي، وباقي الصفات المذمومة. ومنها ما يخفى عن جل العقول، وهي المحامد التي يقف العقل معها ويتوجه إليها، ويكتفي بها دون الغاية الحقيقية. فيحجبه هذا النوع من العوائق عن ربه، الذي لا يرضى أن يشاركه في قلب عبده سواه. فالنوع الأول هو الحجب الظلمانية، والنوع الثاني هو الحجب النورانية. والله من وراء ذلك كله، محيط بذلك كله.

ومن رحمة الله بعباده، أن جعل في كل زمان رجالاً، أهّلهم بما يلزم كي يدعوا إليه على بصيرة، في رفق ولطف؛ ويأخذوا بأيدي من شاء الله له الهداية، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

فما أحوج أمتنا، والعالم بأجمعه، إلى الائتمام بهؤلاء !

ولو علم سجناء الفكر والنظر ما يكسبونه من وراء التلمذة على أيديهم، ما سبقهم إليهم أحد. ولو علم المحبون المشتاقون إلى نور النبوة ما يحرزه هؤلاء منها بالوراثة، لاسترخصوا كل نفيس في سبيل الفوز بسويعات معهم، على بساط الحضور.

وإننا بهذا الجزء، نرجو أن نكون قد أعطينا نظرة إجمالية للمراتب التي ينزل العقل فيها، في أثناء سلوكه سبيل الترقي. كما نتمنى أن نكون قد أثَرنا بعض النفوس، ورغبناها في تحقيق

تلك المراتب، والتحقق بما تتضمنه من المنازل وأسمى المآرب. سائلين الله تعالى للجميع النجاة من الآفات المحدقة بالمسالك، والتجنيب لكل المعاطب والمهالك.

والحمد لله على هدايته ورعايته، حمداً منه بدايته وإليه نهايته. والصلاة والسلام على شمس الهداية الساطعة، سيدنا محمد وآله وصحبه، وعلى كل عبد لله مخلَص.

فهرس